مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

# نجوم لا تأفل

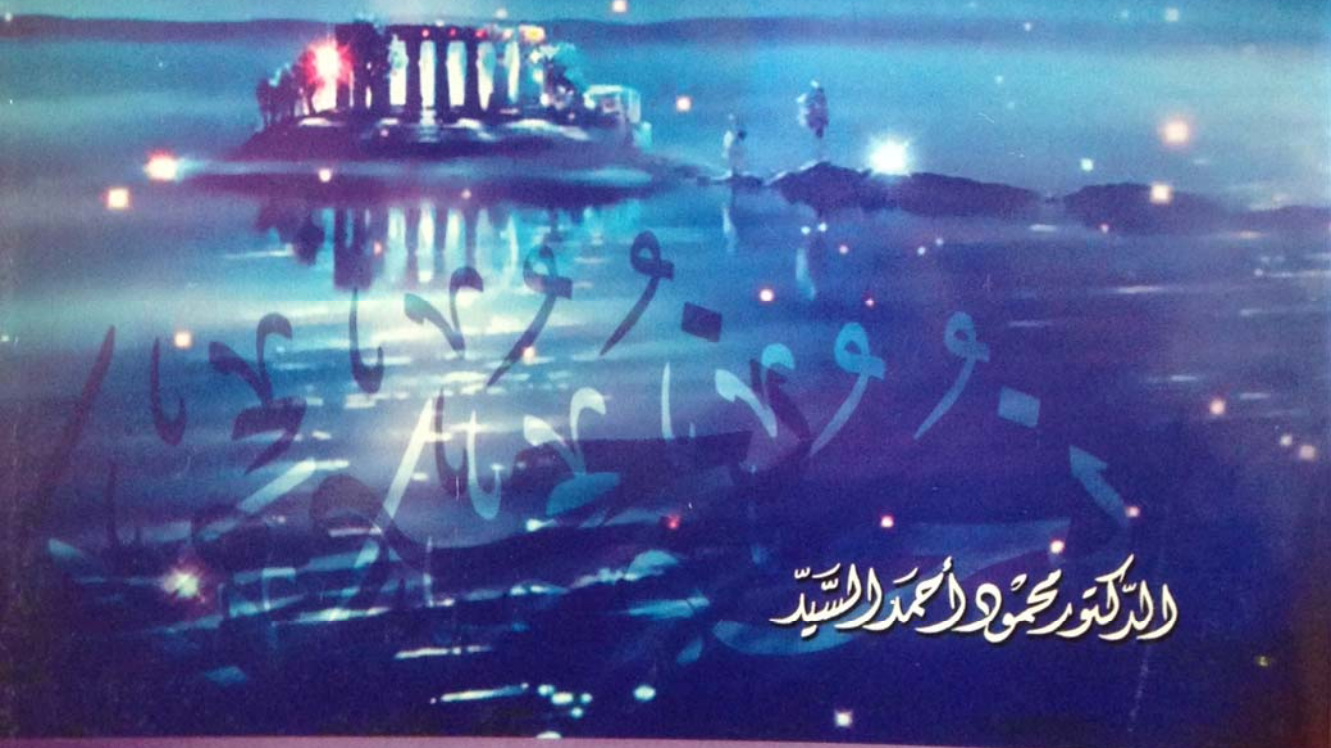

الدكتور محمود أحمد السيد

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

# نجومٌ لا تأفل

إعداد

الدكتور محمود أحمد السيّد

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

## تصدير

جاء في الحديث النبوي الشريف «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». وإذا كان من يترك علماً ينتفع به بعد مماته يعد في الأحياء، فلا يمكن، والحال هذه، لنجمه أن يأفل مادام ثمة للمعرفة شداة، وللعلم بناة، يبحثون عنه في مختلف الجهات.

ويضم هذا الكتاب الذي بين أيدينا المعنون بـ «نجوم لا تأفل» كوكبة من رجالات أعلام، وقفوا حياتهم لخدمة العلم، فأبدعوا في الميادين الفكرية التي خاضوا فيها، وها هي ذي آثارهم تدل عليهم، وما كانت تلك الآثار إلا باقة من حديقة الإبداع، وما كان لزهورها أن يضوع شذاها لولا المكابدة الحقيقية لذويها تجذراً وأرقاً وسهداً وتعباً، وما كان لإشعاعها أن يزداد ألقاً لولا الطاقة المتجددة في عقولهم، ويقظة القيم في وجداناتهم.

ولقد رأيت أن ثمة واجباً علينا أن نسلّط الأضواء على جزء ولو يسيراً من ثمرات تلك العقول، فكان البابان اللذان ضمهما هذا الكتاب محاولة لتبيان جانب من الحياة الخصبة الحافلة بالعطاء لتلك الكوكبة المتميزة في ميادين الأدب والتربية وعلم النفس والفن.

ففي مجال الأدب ثمة قامتان شعريتان شامختان في تراثنا الأدبي المعاصر وهما عضوا المجمع المراسلان الشاعران بدوي الجبل وعمر أبو ريشة، وثمة أعلام مبدعون في مجال الدراسات الأدبية والنقدية وهم الأساتذة الدكاترة أمجد الطرابلسي العضو العامل في المجمع، وإحسان عباس العضو المراسل فيه، وشكري فيصل العضو العامل وأمين مجمع اللغة العربية بدمشق من قبلُ، وزهير البابا العضو العامل في المجمع، وعبد الكريم الأشتر عضو الشرف في المجمع.

وفي ميدان التربية وعلم النفس تتبدى أسماء لامعة مبدعة في هذا الميدان منها الأستاذان الجامعيان الدكتوران فاخر عاقل وعبد الله عبد الدايم، والأستاذان نعيم الرفاعي ووجيه الأسعد.

ولم يقتصر الإبداع لدى بعض هؤلاء الأعلام على تخصص واحد، وإنما تأبى المواهب إلا أن تظهر لتشمل أكثر من ميدان. وهذا ما لاحظناه قد تجلّى لدى الأساتذة الدكاترة ادوارد سعيد الأستاذ الجامعي في الجامعات الأمريكية وعبد الكريم اليافي وعبد الوهاب حومد عضوي المجمع العاملين فيه.

وتظهر الكلمات الواردة في هذا الكتاب في جانب منها العلاقة التي كانت تربطني بنفر من هؤلاء الأعلام تلمذة على أيدي بعضهم، وزمالة وصداقة مع بعضهم الآخر. ولكم أحس بالتقصير وأنا أعرض للمحة موجزة من نتاج كل منهم، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله. وحسبي أنني كنت وفياً تجاه الفضل الذي أسبغوه على الآخرين، ومعبراً عن مشاعر صادقة تجاه المواقف الحية التي وقفها هؤلاء على الصعد الوطنية والقومية والإنسانية والتي تصلح للأجيال قدوة ومثالاً.

**دمشق في ٢٠١١/٦/٢٠** **محمود السيّد**

# الباب الأول

# في

# ندوات تكريمية

## محتويات الباب الأول

١- بعض السمات البارزة في المنهج التربوي للأستاذ الدكتور شكري فيصل
«اتحاد الكتاب العرب بدمشق- تشرين الأول عام ١٩٨٥»
٢- كلمة عن الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي
«مجمع اللغة العربية بدمشق- شباط عام ٢٠٠٢»
٣- الملتقى الثقافي «فلسطين في فكر ادوارد سعيد»
«مكتبة الأسد بدمشق- كانون الأول ٢٠٠٣»
٤- ندوة الشاعر عمر أبو ريشة
«دار الكتب الوطنية بحلب- تموز ٢٠٠٤»
٥- الحفل التكريمي للأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدايم
«مكتبة الأسد- أيار ٢٠٠٤»
٦- الحفل التكريمي للأستاذ الدكتور إحسان عباس
«المركز الثقافي بمخيم اليرموك بدمشق- تموز ٢٠٠٥»
٧- ندوة الشاعر بدوي الجبل
«دار الأسد للثقافة والفنون بدمشق آب ٢٠٠٥»

# الدكتور شكري فيصل
## العضو العامل في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في دمشق عام ١٩١٨، وفيها كانت دراسته الابتدائية والثانوية، وقد حصل على البكالوريا الأولى «القسم العلمي» سنة ١٩٣٦، والبكالوريا الثانية «قسم الفلسفة» سنة ١٩٣٨، ونال الإجازة في الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٤٢، ونال الإجازة في الحقوق من جامعة دمشق عام ١٩٤٦، ثم حصل على الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٤٨ والدكتوراه عام ١٩٥١.

عمل مدرساً في أغلب ثانويات دمشق الخاصة بعد حصوله على الإجازة في الآداب، وشارك في تأليف كتب اللغة العربية والأدب العربي قبيل جلاء المستعمر عن سورية وعقبه، وعمل في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية في أثناء وجوده في القاهرة.

وبعد عودته إلى دمشق مارس التدريس في كلية الآداب بجامعة دمشق، وشارك في عدد من اللجان الرسمية، ومنها لجنة التربية والتعليم بوزارة المعارف، ونشر عدداً كبيراً من المقالات في مجلات «الآداب، الأديب، الثقافة، الكتاب...الخ»، وألف عدداً من الكتب.

ومن مؤلفاته: مناهج الدراسة الأدبية، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول وتطورها الأدبي واللغوي، حركة الفتح العربي في القرن الأول، مقدمة المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام، خريدة القصر وجريدة العصر في جزأين، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، الصحافة الأدبية في سورية، أبو العتاهية أخباره وأشعاره، ديوان النابغة الذبياني، بحث عن نثر شوقي، بحث عن الشاعر القروي...الخ.

بعد اختياره عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق بتاريخ ١٩٦١/٢/١٤ عمل في عدة لجان في المجمع بكل كفاية واقتدار وحماسة، ومن هذه اللجان لجنة المخطوطات وإحياء التراث، ولجنة الأصول، كما عمل أميناً عاماً للمجمع، وانتخبه المجمع العلمي العراقي عام ١٩٧٠ عضواً مراسلاً له، كما انتخبه المجمع الهندي العربي عضواً فيه عام ١٩٧٥، وانتخبه مجمع

اللغة العربية الأردني عام ١٩٨٠ عضواً مؤازراً له، كما انتخبه مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٤ عضواً مراسلاً.

# بعض السمات البارزة في المنهج التربوي
# للأستاذ الدكتور شكري فيصل*

لما كلّفني اتحاد الكتاب العرب كتابة بحث عن أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل وقعت في حيرة من أمري، ترى ماذا عساي أن أكتب عن فترة زاخرة بالعطاء استمرت ما يقرب من نصف قرن قضاها أستاذنا الراحل في مختلف ميادين الإنتاج الفكري الإنساني حتى ليقف المرء مدهوشاً متسائلاً: أهذا الإنتاج الضخم هو من صنع رجل واحد؟!

أأكتب عن الجوانب النقدية الأدبية؟ أم عن منهجه في التحقيق؟ أم عن إسهامه في مجال التعريب؟ أم عن القضايا التربوية المتعلقة باللغة والأدب؟ أم عن مقالاته المتنوعة؟ أم عن آرائه ومقترحاته التي كان يتقدم بها إلى الندوات والمؤتمرات التي طالما شارك فيها وما كان أكثرها! أم عن أسلوبه المتميز؟

وألفيت أن الكتابة في أي جانب من هذه الجوانب تتطلّب أبحاثاً متعددة، إذا كنا نريد أن نوفّي أستاذنا بعض حقه علينا وعلى أمتنا. ولما كان يعز علي أن أحيط بهذه الجوانب كلها عمودياً ما دامت المدة المخصصة لإنجاز البحث غير كافية آثرت أن أتوقف عند بعض السمات البارزة في المنهج التربوي لأستاذنا، لأنها تقدم صورة أرجو أن تكون واضحة عن السمات العلمية التي كان يتحلّى بها، والمبادئ التي كان يؤمن بها ويدعو إليها، والاتجاهات التي كان يتبنّاها منطلقاً وهدفاً وشعاراً وأداءً.

وليس معنى ذلك أنني تخليت عن الصعوبة وآثرت السهولة، إذ إن إدراك هذه السمات العامة والقواسم المشتركة يقتضي التتبع والتدقيق والربط والاستنتاج مما خلفه المرحوم وراءه من آثار. وإنه لمما يحزّ في النفس ألماً أنك لا تجد آثاره في مكان معين وإنما هي موزعة في أماكن

* بحث ألقي في الندوة التكريمية التي أقامها اتحاد الكتاب العرب بدمشق إبان رحيل الأستاذ الدكتور شكري فيصل عام ١٩٨٥.

متعددة، بعضها في الجامعة، وبعضها الآخر في معهد الدراسات العربية الفرنسية، وبعضها الثالث في مجمع اللغة العربية.

ولا يسعني هنا إلا أن أقدم الشكر والعرفان للقائمين على مكتبة المعهد الذين أمدوني بكثير من إنتاج الدكتور شكري، كما أشكر الزميل الكريم الأستاذ مطيع الحافظ على ما أمدني به من مقالات مصورة كان قد كتبها أستاذنا في مجلة مجمع اللغة العربية.

وبعد تفحص تلك الآثار، أو على الأصح أغلبها، وجدت أن ما يميز المنهج الفكري التربوي لأستاذنا الأمانة العلمية والوفاء وإرجاع الفضل إلى ذويه، ثم التواضع، وإيمانه بمسؤولية الكلمة، والأخذ بالنظرة الكلية والمنهج الشمولي في معالجة القضايا، ودعوته إلى تكامل الخبرة واستمراريتها، وإلى وحدة اللغة، وتبني الطريقة التنقيبية في التدريس انطلاقاً من ممارسة النصوص ومعاناتها، وتبني الاتجاه الوظيفي في التعليم، وصوغ المشكلات وتحديدها في أسئلة. وفيما يأتي فكرة موجزة عن كل من هذه السمات.

**١- الوفاء والأمانة العلمية وإرجاع الفضل إلى ذويه:**

إذا كان عضو مجمع اللغة العربية الراحل الشاعر الكبير بدوي الجبل رحمه الله يقول:

طبعي الحب والحنان فما أعـ ـرف للمجد غير حبي طريقا

لا أريد الإنسان إلا رحيما باختلاف الهوى وإلا شفيقا

فإن هذا القول ينطبق على واقع أستاذنا الدكتور شكري فيصل فجبلّته الوفاء في أسمى معانيه، وأرومته النبل في أجلى مراميه في وقت يصح فيه قول الشاعر:

قلَّ الوفاء وزاد الغدر وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل

ألق نظرة على أي أثر من آثاره تجد أن الوفاء يطل من بين السطور يوجهه لأستاذه المشرف تارة، ولأساتذته تارة أخرى، ولأصدقائه وزملائه طوراً ثالثاً، ولطلابه طوراً رابعاً، ولعمال المطبعة طوراً خامساً. وهكذا لا ينسى وهو في الزحام أن يلتفت إلى كل ذي فضل فيسجل له شكره وعرفانه وتقديره، ولعمري هذا هو الخلق الكريم والمعدن الأصيل والتهذيب الجم والقدوة التي يقتدى بها، والمثال الذي يحتذى.

فلنستمع إليه معبراً عن شكره لأستاذه المشرف قائلاً: «وأجد في عنقي ديناً ليس أكرم من هذه اللحظات لأن أشيد به، وأنبه عليه، فأنا لم أنتفع بقراءتي وجهودي وحدها، ولكنما أصبت قدراً عريضاً من النفع من توجيه أستاذي المشرف ومن اهتمامه، وربما بدا هذا من نافلة القول في عرف الذين يزنون الأمور بميزان الحقوق والواجبات، ولكني فيما ركبت عليه من طباع نفور من أن تتناول الأمور دائماً هذا التناول، ولذلك كنت سعيداً أن وجدت عند أستاذي المشرف مثل الذي كنت أتمناه إشرافاً عريضاً واسع المدى يستجيب دائماً لكل نأمة ويرد على كل شبهة، ويصب عقله كله ونفسه كلها لصاحبه الذي ورد يستقي منه، ويبدي في ذلك ويعيد في صور وألوان، حتى يطمئن إلى أنه استثار كل ما عنده من قدرة على التقبل والاستجابة أو على النقد والإثارة.

ولقد حرصت على أن أنتفع بكل إثاراته، بكل ما كان في أحاديثه الشفهية أو تعليقاته الكتابية ما كان خاطفاً كلمع البرق، وما كان متمهلاً كاستطالة الشمس في نهار صائف» (١).

ويعيد الدكتور هذا الشكر في مقدمة كتابه «حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول» قائلاً:

«وأنا أعيد هنا شكر أستاذي المشرف الأستاذ الجليل أمين الخولي، فقد عودني الصبر وحبّب إليّ الأناة، وأخذني بالعمل الدائب، وردني مرة ومرة إلى ما يجب أن يأخذ به الدارسون أنفسهم من النهج العلمي ومن الروح العالية التي لا تضيق بالطرق الوعرة الشاقة» (٢).

وفي تحقيقه لديوان أبي العتاهية يقول: «أحب أن أبث القارئ أشياء أحمل عبئها سعيداً به على كتفي، ذلك هو الشكر الذي أزجيه في خاتمة هذه المقدمة إلى جماعة من أصدقائي وإخواني وطلابي. إلى الصديق الأستاذ الدكتور يوسف العش عميد كلية الشريعة في جامعة دمشق، فقد هداني إلى ترجمة أبي العتاهية، هذه الترجمة الحافلة، وتفضّل فأعارني الصورة التي يملكها من النسخة الوحيدة لهذا الكتاب الضخم «بغية الطلب». ولقد كان لأخبارها المسندة أثرها في دفعي إلى الذي تحدثت عنه ودعوت إليه من أمر الأسناد في الروايات الأدبية وضرورة العودة إليها واعتبارها أصلاً من أصول تحرير العمل الأدبي الذي يسبق الدراسة ويمهد لها.

وقد كان للأستاذ الكريم أحمد عبيد من الفضل في هذه المرة مثل الذي كان له من قبل، فضل تعوّده فأنكره وألفناه فاستبطنّا الحديث عنه، فقد مكّن لي من النظر فيما عنده في مكتبته الخاصة من مخطوطات ومطبوعات، وأعانني في مواقف استبهمت عليّ قراءتها في بعض المصورات، وكان له في مواقف أخرى رأي أذكره بالشكر والتقدير.

وفي ذهني أسماء طائفة من طلاب قسم اللغة العربية آثرت أن أسلك بهم طريق الدراسة والتحقيق في بعض أشهر الصيف في نجوة من حدود الدراسة وقيودها تفتيحاً لقواهم ووفاء بالأمانة لهم، فقد أعانوني في مراحل هذا العمل، فكان حقاً علي في مثل حق الولد على الوالد أن أذكرهم مقدراً جهودهم سائلاً أن يشد أزرهم على طريق الوفاء بالعهد الذي أخذوا على أنفسهم في متابعة عربية القرآن، خدمة لها وانتصاراً له وأداء لحق هذا الوطن الكبير في لغته وتراثه أقدس مقوماته وأكرم مميزاته.

وأنا حريص على أن أشكر كذلك في هذه المناسبة الجامعة السورية على أنها صاحبة هذه السنة الحميدة في تمكين الأساتذة من طبع ما يحتاجون أن يطبعوا عندها، وإنه لتقليد جدير أن يصان فلا ينقص أو يبدّد.

وإذا كان وراء إخراج هذا العمل على هذا النحو في هذه الأشهر القليلة من ناس أفنوا

بياض نهارهم في سواد الحرف المشكول ودقته فاستحقوا الشكر فأولئك هم رجال المطبعة إدارتها وعمالها» (٣).

وتتجلى الأمانة العلمية في شخص أستاذنا الراحل في جميع آثاره، فهو يرد الفضل إلى ذويه، وما من إنسان قدم له اقتراحاً أو فكرة أو رأياً شفاهياً كان أو كتابياً إلا أشاد به وسجله له، فها هو ذا يقول في كتابه «الصحافة الأدبية»: «أحب أن أقول لكم إنّ الفضل في شق هذا الطريق الجديد بين يدي الدراسة الأدبية، ويعني به تمثل الأدب العربي المعاصر وتكوين فكرة كليّة عنه، في ضوء ما ينشر في المجلات يعود إلى الأستاذ الدكتور اسحق الحسيني فهو الذي اقترح عليّ هذا الموضوع ذات يوم في العام الماضي في حديث عارض، وقد لقفت هذا الاقتراح لأنه كان في ذهني شيء من هذا الموضوع» (٤).

إنها الذروة في الأمانة العلمية، فمن حديث عارض يلقف الفكرة ويسجلها لأصحابها في الوقت الذي نرى فيه ويا للأسف أن ثمة مؤلفين يسرقون الفكر المدونة في بطون الكتب من غير إشارة إلى أصحابها، مدّعين أنها من بنات أفكارهم، فأين الأصالة من الزيف؟ والخلق من الانحراف؟

ويقول في تحقيقه لديوان النابغة الذبياني «كان من بعض أمانيّ التي خالجتني منذ حين بعيد، وأنا على مقاعد الدرس أن أنشر طبعة محققة لديوان النابغة، فقد حبّب إلي الشاعر من خلال بعض الدروس التي استمتعت فيها أيام كنا في مرحلة الدراسة الثانوية إلى أستاذنا الجليل المرحوم العلامة محمد سليم الجندي- أجزل الله له الثواب- وكان رحمه الله تكرّم فأذن لي أن أعلق على دراسته التي أعدها عن النابغة حين كانت كراريس مخطوطة يعرفها الصفوة من طلابه، وهي الدراسة التي طبعت بعد وفاته- أفسح الله له في خلده- باسم النابغة الذبياني» (٥).

وفي تحقيق خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب يقول: «كانت كلمة طيبة من الأستاذ العالم الجليل عبد السلام بن سودة بمثابة الشرارة المضيئة، سمعتها منه في الرباط في المكتبة، وسمعته فيها يقول لي: هل رأيت الشيخ تقي الدين العلوي مدرس التاريخ في كلية القرويين؟ وهل رأيت عنده جزءاً من الخريدة؟ وحين كنت أمر بـ «الدوح» كان بيت الأستاذ التقي على يميني منحدراً وعلى يساري مصعداً، كنت أحس كأنّ كل هذا العالم في بيوت فاس

ووراء جدرانها ذات الأسوار العالية ومن وراء الشبابيك المتسربة من أعماق البيوت المطلة على الأزقة كأنّها عين ترى أو أذن تسمع، كان كل هذا العالم يجتذبني، كنت أسمع فيه أصوات علماء وشعراء ومنشدين ومغنين وذاكرين ومكبرين، وكانت تتراقص لعيني فيه ملامح شباب وصبايا وشيوخ وعلماء ومتصوفة وعبّاد ومتهجدة، وما كنت أدري أنّ على رف في جدار من هذه الجدر في بيت الأستاذ التقي نسخة من الخريدة سيكون لها في هذا شأن.

ودخلت منزل الأستاذ التقي يقودني تهذيب بالغ لا أملك أن أصفه ووداعة وادعة لا تقع عليها إلا في النادر، وحديث عادي ليس فيه تكلّف ونفس مطمئنة تشعر وأنت معها للمرة الأولى وكأنك معها تعرفها منذ أمد بعيد، وهل نحن في المشرق والمغرب إلا أسرة واحدة، أوراق من شجرة واحدة تمتد جذورها في كل هذه الأرض وترتفع أغصانها فوقها.

وأمسكت بالكتاب، كانت عيني معه ترقبه في يد صاحبه وهو ينزل به عن مكانه من الرف، وكان قلبي معه كذلك، ترى هل تدخر لي المخطوطات التي أحببتها مفاجأة جديدة؟ وكانت المفاجأة حين وجدت أن هذا الجزء من الخريدة يتضمن قسم شعراء دمشق الذي كنت عرفته في القرويين أول العام والذي اشتغلت به في خلال العام والذي أيقنت أنه لا سبيل إلى نشره ما لم يكن هناك نسخة أخرى تساعد عليه وتمكن منه.

وكانت المفاجأة أحلى حين وجدت أن الجزء مكتوب بخط مشرقي حلو واضح مشكول أحياناً وأنه قديم قديم يرجع إلى القرن السابع.

ووجدتني أتطلع إلى السماء كأنما أتجه إلى الله في صلاة عميقة مهموسة، وأتطلع إلى الكتاب كأنما أنظر إلى جوهرة، إلى درة صدفية غواصها متى يرها يسجد كما يقول النابغة في حب وإشفاق وطموح. وأتحدث إلى الأستاذ التقي عن هذا الكتاب وعن أفضل السبل للانتفاع به.

وكان الأستاذ التقي يحب أن يشارك في إحياء التراث بنشر هذا الجزء، وكان قرأه وكتب بعض الملاحظات على صفحات منه، وكان يرجو أن تتاح له فرصة إخراجه، ولكنه حين عرف صلتي بالخريدة وعملي فيها نزل عن ذلك كله، وأباح لي في أريحية عالم وصوفية تقيّ ونبل سيّد أن أنوب عنه في ذلك، أفلا يستحق مثل هذا الموقف الصافي الخالص كلمة شكر صاف وتقدير خالص في هذه المقدمة» (٦).

وعندما يتحدث عن صلته بكتاب «خريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الأصفهاني الكاتب يشير إلى الفترة التي كان يعدّ فيها رسالة الدكتوراه في القاهرة والتي كان يستمع فيها إلى المناقشات التي كانت تدور بين أستاذه المشرف الأستاذ أمين الخولي والأستاذ مظفر سلطان الذي كان يعد رسالة عن العماد الأصفهاني، كما يشير إلى تردد الأستاذ إحسان عباس إلى مكتبة المعهد يحمل أصول الخريدة وتجارب الطبع، فيستقر في ذهن أستاذنا أن يشارك في نشر الخريدة، ويلقى تكليف مجمع اللغة العربية له هوى في نفسه، ويجد من الأستاذ الرئيس محمد كرد علي كل تشجيع، ويستمر التشجيع على يد خلفه خليل مردم» (٧).

وما أروع وفاءه وأمانته العلمية ! عندما يتحدث عن بعض مناحي تدريسه وأن الفضل في ذلك المنحى إنما هو لأساتذته فها هو ذا يقول في كتابه «تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام»، وأنا لست مديناً بهذا الذي أتحدث عنه إلى تجربتي في التدريس الجامعي فحسب وإنما أنا مدين به إلى طائفة من أساتذتي الذين أخذت عنهم، ثم جاءت هذه التجربة تعيد عليّ ما كان من أمر عنايتهم بالنصوص وأسلوبهم في درسها والوقوف عندها وقراءتها قراءة تبصر وتدبر. أردت الإشارة إلى الأستاذ العميد الدكتور طه حسين وأستاذي المشرف الأستاذ أمين الخولي والأستاذ الجليل إبراهيم مصطفى. فأما مع الدكتور طه فقد كنا طائفة من طلاب الامتياز وطلاب الدراسات العليا حوالي سنة ٤١-٤٢ نسعى إليه في أمسيات أيام الأحد في الكلية نقرأ عليه «كتاب الوزراء والكتاب» للجهشياري ومن ينسى هذه الساعات التي كانت تهدأ فيها الكلية من صخب الكثرة لتسلم لهذه القلة من الطلاب الذين كانوا يجلسون في هذه القاعة التي تجاور غرف الأساتذة يرقبون الأستاذ العميد؟

وأما مع الأستاذ الخولي فذلك حين قرأنا بعض كتب البلاغة القديمة وفاق هذا المبدأ الذي كان يأخذ به أستاذنا ويدعو إليه، مبدأ «قتل القديم فهماً هو أول الجديد»...وحين قرأنا في زحمة نقاش عنيف بعض شعر المتنبي في كافور وسيف الدولة. إن حدة النقاش وذهابه كل مذهب كان يجعل الأسبوع كله نهب أبيات معدودات لا نجاوزها.

وأما مع الأستاذ إبراهيم مصطفى ففي قراءة قصائد من المفضليات، والذين يعرفون دقة الأستاذ وأناته من نحو وإثاراته وتساؤلاته من نحو آخر يدركون أثره في تلامذته وعمله في نفوسهم.

وأجد أن من واجبي أن أنوه بعد- وأنا أنحني إجلالاً لروح الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام- بالذي أفدت منه حين كنا نستمع إلى دراسته لصفحات من الأغاني فيها أخبار بعض الشعراء، فقد أثار ذلك عندي أفقاً عريضاً وتنبّهاً ثراً للذي نستطيع أن نفهم من هذه النصوص» (٨).

وإذا كان أستاذنا الراحل يشير إلى فضل أساتذته عليه في السير في هذا المنحى فإنه لا يغفل فضل زملائه في كلية الآداب بجامعة دمشق الذين سبقوه في ميدان التدريس فها هو ذا يقول عنهم: «ما كدت أبدأ دروسي في كلية الآداب في دمشق حتى وجدت أن زملائي الذين تقدموني في التدريس يولون هذا الأمر فوق الذي أحببت أن أوليه، ويهتمون به مثل الذي أردت أن أبذل له من اهتمام، عنيت الأساتذة الذين كان لهم قبلي شرف الجهد في إنشاء كلية الآداب والسهر على هذا الوليد حتى استوى عوده واستغلظ، والذين نهّجوا لها سبلها وأصّلوا دراساتها وتقاليدها الأستاذ العميد شفيق جبري في دراسته عن الأغاني دراسة لا تعرف غير نصوص الأغاني، والأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي في دراسته للنقد واللغة في رسالة الغفران، والأستاذ سعيد الأفغاني في انصرافه المطلق إلى الأصول الأولى والشواهد في دراسة آلات العربية، وتعويله عليها» (٩).

تلك هي سمة الأمانة العلمية والوفاء وإرجاع الفضل إلى ذويه، وهذا يقودنا إلى التواضع الذي كان يتحلى به أستاذنا الراحل.

**٢- التواضع:**

كم نلاحظ في أيامنا الحاضرة نفراً من الباحثين أصيبوا بـ «التضخم بالأنا» والتمركز حول الذات «فيتبجحون ويتباهون بأن العمل الذي قاموا به ليس له مثيل ولا يرقى إليه أي عمل آخر، ويرددون أنهم أول من طرق هذا الباب مسفّهين آراء الآخرين، مدّعين أنها تتسم بالسطحية والضحالة، على حين أن أداءهم يتسم بالجدية والتفرد والأصالة».

لنتعلم من أستاذنا الراحل التواضع العلمي ففي كتابه القيم «المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي» يقول: «لست أحب أن أبالغ في وصف ما فعلت فقد كان عملي بدءاً بالأمور من أصولها الأولى ووقوفاً عند أدق المعارف وجمعاً لها. كانت هذه المعارف تتكامل يوماً بعد يوم ليكون منها بعد ذلك هذه الصور الجديدة عن المجتمعات الإسلامية في نشأتها ونموها، وكانت تتزاحم لتثير أحياناً سلسلة من المشاكل قد لا يبلغ بها الباحث كل غايتها، ذلك لأن مشكلات الدراسة الأدبية والتاريخية بطبيعتها من نحو، وطبيعة مصادرها من نحو آخر، لا تساعدنا دائماً على حل واضح، فإذا استطاع الباحث عرض بعض هذه المشكلات أحياناً في شكل أكثر وضوحاً وأبعث على الإثارة والتنبيه، وإذا استطاع أن يستنفد فيها جهده بقراءة كل ما تحت يده، وإذا استطاع أن يبدي في ذلك رأياً أو ينتهي إلى فكرة أو يصدر عن اتجاه فإن ذلك خطوة في حقل الحياة العقلية لن تضيع». (١٠)

ولنستمع إلى الحكمة المستخلصة من قوله: «وإذا كنت لا أحب أن أبالغ في وصف ما عملت فلست أحب كذلك أن أبالغ في تقويم النتائج التي وصلت إليها. إن عملاً ما لا يمكن أن يسميه صاحبه عملاً كاملاً، وحين يجرؤ فيسمه هذه السمة فإن ذلك يعني أن وقدة الحياة المتوهجة المتقدة قد آذنت بالخمود!» (١١).

إن هذا القول يحطم غرور المتبجحين، ويرسم الصورة للباحثين في أن ينشدوا الأفضل، وأن الكمال لله وحده! وأنّ كل من يظن في نفسه أنه بلغ ذروة العلم فقد انتهى.

ويقول أستاذنا الراحل في مقدمة كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر» الذي عمل على تحقيقه، وكلنا يعرف الجهود الكبيرة المبذولة في أثناء هذا العمل «ولست أزعم أني فعلت كل ما يستطاع فعله أو كل ما أستطيع فعله فالذين يعانون هذا العمل ويتمرسون به، والذين يقدرونه

ويحسنون تقديره يدركون أن الأولى لا يقدر أن يقولها أحد مدى حياته، وأن الثانية لا سبيل إليها لأن ما يغمض عليك اليوم يتضح لك غداً، وما يستغلق في ساعة من ساعات الليل ينفتح في ساعة من ساعات النهار، وما لا تسعفك به مناسبة تسعفك به مناسبة أخرى، وما لا تراه في هذا الكتاب أو تراه على وجه قد تراه في كتاب آخر وقد تراه على وجه ثان، غير أنك لا تملك أن تجعل وقتك كله وعمرك كله وقفاً على كتاب، وقصاراك أن تبذل ما تستطيع في ظروف الزمان أو المكان أو العمل الذي أنت فيه» (١٢).

والتواضع الذي كان يتحلى به كان دافعاً له للاستفادة من الآخرين ذلك لأن العلم يضيع بين اثنين: الغرور والحياء، وما أبعد أستاذنا الراحل عن الغرور! لنستمع إليه يقول: «يحتم عليّ الوفاء أن أقدم إلى الأستاذ الجليل خليل مردم رئيس المجمع العلمي أطيب الحمد على الذي لقيت من رعايته، فقد أبى أن يمل حيث كان يقترب مني الملل، وكان إصغاؤه الهادئ إلى ما أقرأ وتنبيهاته الدقيقة على ما يسمع، وتصويباته لي حيث ينبهم عليّ وجه الصواب ويغم المخرج بعض عدتي في إخراج هذا الكتاب» (١٣). ويقصد به خريدة القصر.

### ٣- مسؤولية الكلمة:

ومن السمات البارزة في منهجه التربوي إحساسه العميق بمسؤولية الكلمة، إذ يعد ذلك أمانة في أعناق حملة الأقلام، وأن الغذاء الفكري الذي يقدمونه للناس ينبغي له أن يكون غنياً مستنداً إلى ثروة خلقية إذ يقول: «هل يدرك كل الذين يقومون على مجلاتنا في الوطن العربي خطر الساحة التي يتقدمون للعمل فيها وضخامة الأثر الذي يخلفونه؟ أيدركون أنهم حين يتصدّون لمثل هذا العمل الفكري الضخم إنما يتحكمون في غذاء الآلاف من الناس، غذائهم الفكري وأن في أعناقهم أمانة الوفاء لهذه الآلاف وإيثارها بكل خير مفيد؟ أيفكر الذين يصدرون كثرة من المجلات عندنا في مدى ما يجب أن يتسلحوا به من غنى ثقافي وزاد فكري وثروة خلقية تتيح لهم أن يكونوا أهلاً لحمل هذه الأمانة الثقيلة؟» (١٤).

وكثيراً ما كان يتألم من انحراف حملة الأقلام عن المسؤولية التي أنيطت بهم فيقول: «يسّاقط في أسماعنا الكثير من انحرافات بعض حملة الأقلام عن أمانة القلم الذي أقسم الله به». (١٥).

لذا يدعو إلى الإيمان بالفكرة التي يطرحها صاحبها وإلى الصدق في تبنّيها والدفاع عنها لأن في عدم الإيمان بها والدفاع عنها تجارة فكرية فيقول: «إنّ الفكرة لا تكون فكرة إلا حين تكون إيماناً بها أو في طريق الإيمان بكل ما يحمله لفظ الإيمان من قناعة داخلية واطمئنان نفسي ووثوق عقلي، والأفكار التي لا تكون موضع إيمان أو قصد إيمان عن طريق عرضها ومناقشتها لا يجوز أن تطرح، إنها حين تكون ذاك تكون موضع تجارة، وليس أقسى من تجارة الأفكار، إنها الفتنة الكبرى التي تخرج بالناس عن محاور حياتهم إلى حياة من غير محاور، إلى حياة تنسخ الحياة في خيوطها الأصيلة لتنسج بدلاً منها خيوطاً موهومة أو كاذبة، إنها تخرج الناس إلى ما نصطلح عليه في مصطلحاتنا بالضلال» (١٦).

وينطلق أستاذنا الراحل في أمانة العمل وأدائه على أحسن وجه وإتقانه، من الحديث النبوي الشريف «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»، وهكذا كان عمله في تحقيق بعض الجوانب من تراثنا يتسم بالدقة والإحساس العميق بالمسؤولية حيث يقول: «ومن هنا كان من الخير لمصلحة الدراسات نفسها، لمصلحة تراثنا ذاته، أن نعنى بتقدمة نصوصه على خير ما

يكون التقديم، وأن نخرجها على أكمل ما يكون الإخراج صحةً وضبطاً وشرحاً وتعليقاً وتمهيداً وتذييلاً، وتوقّفاً عند كل ما يحسن التوقف عنده، وإشارة إلى كل ما تجب الإشارة إليه» (١٧).

وعندما نشر ديوان أبي العتاهية يذكّر بتلك المسؤولية العلمية والأخلاقية فيقول: «أليس من الحق أن تكون إعادة نشر ديوان أبي العتاهية أول واجب العاملين في الدراسة الأدبية أينما كانوا استنقاذاً لسمعة هذا التراث عن أن يكون من بين الذين يعملون فيه من تهون عليهم كل القيم العلمية والأخلاقية يدوسونها من غير رادع ثم لا يتورّعون؟!» (١٨).

ويلتزم الدعوة إلى الدقة والأناة والإحساس العميق بالمسؤولية قولاً وعملاً فها هو ذا يقول في مقدمة تحقيق كتاب «الوافي بالوفيات» «وبعد فقد مضيت في تحقيق هذا الجزء على النحو الذي مضت فيه الأجزاء الأخرى غير أني أخذت نفسي مع الدارسين الذين يعملون بإشرافي في إعداد الرسائل الجامعية في الدراسات العليا على ترتيب المصادر في الحواشي ترتيباً زمنياً تراعى فيه سنوات وفيات المؤلفين. وقد آثرت ذلك هنا حتى لا أناقض بنفسي ما أدعو إليه الآخرين».

وقد عزز هذا الاتجاه في المحاضرات التي ألقاها على طلبة الدراسات العليا في معهد الدراسات العربية في القاهرة إذ يقول: «إنّ ثمة اتجاهات في دراسة الأدب المعاصر، حيث تجدون الاتجاه الذي يقوم على دراسة الأشخاص على النحو الذي فعله الدكتور مصطفى علي عن الرصافي، والدكتور محمد مندور عن خليل مطران، والمرحوم الدكتور منصور فهمي عن مي زيادة، والأستاذ أحمد الطاهر عن حافظ، والدكتور محمد أحمد خلف الله عن الشدياق، والدكتور سامي الدهان عن الأمير شكيب أرسلان، والأستاذ شفيق جبري عن كرد علي، والدكتور أسعد طلس عن المرحوم الشيخ عبد القادر المغربي.

وتجدون الاتجاه الذي يقوم على دراسة المذاهب والتيارات والخطوط الكبرى في الكتب التي كتبها والمحاضرات التي ألقاها الدكتور جميل سعيد عن التيارات الأدبية الحديثة في العراق، والأستاذ صلاح بكري عن التيارات الأدبية الحديثة في لبنان، والدكتور ناصر الدين الأسد عن الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، والأستاذ محمد الفاضل بن عاشور عن الحركة الأدبية الفكرية في تونس، والدكتور محمد النويهي عن الاتجاهات الشعرية في السودان، والدكتور محمد مندور عن الشعر بعد شوقي، والدكتور جميل صليبا عن الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام

وأثرها في الأدب الحديث.

وتجدون الاتجاه الذي يقوم على دراسة فن أدبي معين في محاضرات الدكتور محمد مندور عن مسرحيات شوقي ومسرحيات عزيز أباظة، والدكتورة سهير القلماوي عن النقد الأدبي، والدكتور أمجد الطرابلسي عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام، والدكتور سهيل إدريس عن القصة في لبنان، والأستاذ محمود تيمور عن القصص في أدب العرب ماضيه وحاضره، والأستاذ شاكر مصطفى عن القصة في سورية».

ويعقب على هذه الاتجاهات في تدريس الأدب فيقول: «ليست مهمتنا في أن نتابع هذه الطرق من الدراسة أو أن نمضي فيها، وإنما مهمتنا أن نشق في هذه الأرض في سبيل التعرف إليها طريقاً آخر يحاول أن يصل إلى هذه الهدف البعيد في تمثل الأدب العربي المعاصر وتكوين فكرة كلية عنه. إننا نحاول أن نرسم خطاً جديداً لا يتوازى مع هذه الخطوط السابقة وإنما يقطعها، وإذا كانت الخطوط السابقة على سبيل التمثيل تقطع هذه الأرض طولاً فإن هذا الخط يقطعها عرضاً، ويقف حيث لم تقف المناهج الأخرى، ويظفر بما لم يظفر به من جزئيات أو من أحداث أو من تفاصيل، ولعلي أصبت الدقة في تطبيق ذلك والكمال لله وحده». (١٩)

وإذا كان من الاتجاهات التربوية الاتجاه نحو التعلم من أجل الاتقان فإن أستاذنا الراحل قد طبق هذا المبدأ التربوي في أبهى صوره، إن في الكتب التي ألفها، أو في المجلدات التي حققها.

### ٤– الأخذ بالمنهج الشمولي والنظرة الكلية:

يتميز منهج أستاذنا الراحل بالشمولية في النظر إلى القضايا ومعالجتها، إذ إنه لا ينظر إلى أي مسألة نظرة جزئية وإنما يتناول الكليات ويدعو إلى الوحدة. ففي رسالته التي قدمها لنيل درجة الماجستير بعنوان «مناهج الدراسة الأدبية» (٢٠) يدعو إلى تبني المنهج التكاملي في دراسة أدبنا العربي، وأن علينا ألا نقتصر على منهج دون غيره، وإذا كان بعض الدارسين يميلون إلى دراسة أدبنا العربي وفق العصور، ويميل بعضهم إلى دراسته وفق الفنون، كما يميل بعضهم الثالث إلى دراسته وفق الأقاليم، فإن أستاذنا يدعو إلى الأخذ بهذه المناهج جميعاً في إطار التكامل والوحدة.

وفي ندوة «اتحاد مجامع اللغة العربية في عمان» عام ١٩٧٨ التي عقدت لمعالجة موضوع «اللغة العربية خلال الربع الأخير من هذا القرن» يقول: «يجب أن تنتهي الندوة من خلال التعدد إلى الوحدة أو ما يقترب من الوحدة، ومن خلال الأفكار الجزئية المتناثرة إلى فكرة كلية لها أولياتها وتسلسل أجزائها ومن خلال العروض الخاصة التي تحدّدها ظروف البلد العربي الواحد إلى التصور المشترك بين مجموعة البلاد العربية ومن المشاكل المتداخلة المعقدة إلى تصنيفها الذي يذهب بتداخلها، وبسيطها الذي يذهب بتعقيدها» (٢٢).

ومن يتتبع آثار أستاذنا يلق أن هذه النظرة الكلية المتكاملة لا تفارقه في جميع مراحل حياته وفي مختلف آثاره، ففي كتابه «حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول» يرى «أن بعض المؤرخين ينظرون إلى حركة الفتح الإسلامي من نحو خاص ويلتزمون هذا النحو في التحليل لها ومناقشتها، وما من شيء أبعد عن الصواب من أن نلتزم في هذه الحركة الواسعة العريضة وجهاً واحداً، وما لم يفد المؤرخ من دراسته سعة الأفق والقدرة على الانفلات من تزمت التعليل الواحد فسيظل بعيداً عن المؤرخ الحق. إن النظرة المتكاملة وحدها كما يبدو لي هي التي تستطيع أن تكشف حركة الفتح وأن تفسرها لأن هذه النظرة هي نظرة الإسلام نفسه إلى الحياة، ولأنها هي التي تدل عليها حوادث الفتح نفسها في أصولها وفروعها» (٢٣).

وعندما يتحدث عن دراسة أدب عصور الانحطاط الممتدة بين سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ وأوائل عصر النهضة يدعو إلى تبني النظرة الكلية في تلك الدراسة إذ يقول: «كان إيماننا بأن

العمل الأدبي نشراً أولاً ودراسةً بعد ذلك لا يمكن أن يعتمد على الاتصال بالحياة الأدبية بمعناها الضيق فحسب إيماناً تؤكده هذه الفترة بوجه خاص لأنها في نتاجها تمثل هذه الصلة بين الأدب العربي وبين كل فروع الثقافة التي كانت تحيا حوله والتي كان يتنفس فيها تمثيلاً واضحاً، ففي توليد بعض المعاني، وفي تلوين بعض الصور، وفي استعمال بعض المصطلحات، وفي تسرب بعض المفاهيم، وفي الألغاز والأحاجي، وفي تصور العمل الفني، وفي منحاه، وفي صوغ بعض التراكيب، وإقامة بعض الجمل على نحو ما دون نحو آخر. في هذا كله تلعب الحياة الثقافية التي تحيط بالحياة الأدبية دوراً كبيراً على حد تعبيرنا اليوم، وتترك على العمل الأدبي ظلاً واضحاً. ولذلك فنحن نزداد ثقة يوماً بعد يوم بأن خدمة هذا الأدب لابد فيها من زاد ثقافي غني لا يتيح الفهم فحسب، ولا التفسير فحسب، وإنما يتيح التعليل حيناً وإدراك الصلة بين مظاهر الحياة الذهنية وبين مظاهر الحياة الفنية حيناً آخر، وتكوين فكرة كلية عن الحياة الثقافية والجو الحضاري بوجه عام» (٢٤).

ومن هنا نجد أن أستاذنا الراحل في ندوة مناهج تدريس الأدب يدعو إلى الربط القوي بين النصوص الأدبية والنظريات، وإلى العناية بالنقد الأدبي وتاريخه وتقوية النزعة النقدية والوصل ما بين النقد الحديث والنقد القديم والإفادة من الصلات ما بين الدراسات الأدبية والدراسات الإنسانية الأخرى مثل علم النفس وعلم الاجتماع والنظر إلى الأدب العربي من خلال حركة الفكر والفلسفة والاهتمام بعلوم اللغة العربية. (٢٥)

وفي تحقيق ديوان النابغة يشير بوضوح إلى التكامل بين الدراسات اللغوية والأدبية إذ يقول: «تعودنا حين استوت دراسات النحو والصرف واللهجات والقراءات وما إليها من علوم العربية الأخرى أن نتعرفها على نحو يوشك أن يكون منحرفاً أو قريباً من الانحراف، فنحن نعلّمها ونتعلمها على أنها دراسات منفصلة، ونظن أن بعضها مغاير لبعض، ولكنك لا تكاد تتعمق ما بينها حتى تجد أن لها نبعة أصلية تبدأ منها ومنطلقاً واحداً تتواثب منه قضاياها هو العناية بالقرآن الكريم ثم بالشعر الجاهلي على أنه هو الطريق اللاحبة الواسعة الأصيلة لخدمة الكتاب الكريم.

ومن هنا كان الأصل المشترك لكل هذه الفروع والجزئيات لهذه القضايا التي تتخذ مرة وجهة نحوية أو صرفية فتكون بحثاً في الصرف ومسألة في النحو، وتتخذ وجهة لغوية فتكون بحثاً في اللغة أو اللهجات أو القراءات، وتتخذ وجهة بيانية فتكون بحثاً في المعاني أو البيان أو البديع على حين تكون كلها هي قضية هذه «العربية» التي نتمنى أن تعود في مناهج دراستها وفي الدراسات العليا خاصة إلى مثل التلاحم الذي كان لها والتواصل الذي كان فيما بينها، دفعاً لهذا التثقيف الذي تنسى معه الأصول، فتؤدي الغفلة عن الأصول إلى ابتسار الفهم وتجزئة المسألة ويسوق الابتسار إلى الغموض، وتؤدي التجزئة إلى مضاعفة الجهد على غير تساند وتواصل ووضوح». (٢٦).

وفي تحقيق ديوان أبي العتاهية يلتزم التكامل أيضاً في الربط بين أشعار الشاعر وأخباره معلّلاً ذلك قائلاً: «وما من حاجة إلى أن أدلل على أهمية الربط بين هذين، بين الأخبار وبين الأشعار في الخطوات الأساسية الأولى لإقامة الدراسة الأدبية، أعني في فهم النصوص واستكناه بواعثها وتبيُّن ما وراءها في حياة الشاعر وفي نفسه، ذلك أن بينها دائماً شيئاً أصيلاً من تلازم وشيئاً أصيلاً من تكامل، أحدهما يفسر الآخر ويعبر عنه، ومن واحد منهما ننفذ إلى الآخر. إننا نستبطن الأثر الأدبي عن طريق الخبر الذي ابتعثه، ونسبر حقيقة الخبر من الكوى التي تتيحها دراسة النص.

إن الأخبار والأشعار وجهان لحقيقة واحدة هي وجود هذا الشاعر في معناه المزدوج! من حيث هو إنسان يشاركنا أحداث الحياة وتجاربها، ومن حيث هو فنان ينفرد عنا بقدرته على الانفعال بها انفعالاً يقود إلى صياغتها صياغة متميزة والتعبير عنها تعبيراً فذّاً، ولعل السبيل الأمثل أن نحكم هذه الصلة بين شعر الشاعر وأخباره، وأن نشهد هذا التفاعل بينهما ليكون أحدهما شهادة على الآخر وتفسيراً له وتثبتاً منه» (٢٧).

وإذا كانت الأمور تدرك بكلياتها وأن إدراك الكل يسبق إدراك الأجزاء كما يرى أصحاب نظرية الجشتالت في علم النفس، وكما أشار إليه العلامة ابن خلدون في مقدمته، فإن أستاذنا الراحل طبق المنهج الشمولي المتكامل، ودعا إلى تبني النظرة الكلية في معالجة القضايا، وحذّر من

النظر إلى الموضوعات من زاوية واحدة ناشداً الإحاطة بالكليات وسعة الثقافة في شؤون التحليل والتفسير والتعليل حتى لا تأتي الحلول مبتسرة والتفسيرات قاصرة.

**٥- تكامل الخبرة واستمراريتها:**

وهو مبدأ من المبادئ التربوية المعاصرة، فللخبرة جوانب ثلاثة: جانب معرفي وجانب وجداني ثم جانب أدائي، وإن ثمة تكاملاً بين هذه الجوانب. ومن هنا يدعو أستاذنا الراحل- رحمه الله- إلى التكامل بين جوانب الخبرة عندما يتحدث عن كليات الآداب في الوطن العربي فيقول: «وليس حقاً ما يبذل أحياناً من هين القول حين يزعم الزاعمون أننا في غير حاجة ماسة إلى كليات آداب أو إلى مثل هذه الكليات النظرية الأخرى التي تتجه إلى الدراسات الإنسانية وتقتصر عليها، ذلك أن إيماننا بكليات الآداب لا يقل عن إيماننا بكليات العلوم، إنهما هاتان الكليتان أو هذان النمطان من الدراسة والبحث ليسا متناقضين أو متعارضين، وإنما هما حلقة واحدة متكاملة، يدور فيها الوجود الإنساني عقلاً وروحاً، حساً ووجداناً، واقعاً وذاتاً، إنهما معاً وجود مفروض في كل حركة أو نهضة، وعلى قدر ما يشتد سلطان العلم وتقوى الحاجة إليه وتشرئب نحوه أعناق الشعوب النامية والآخذة بالنمو على قدر ما يكون من حاجة هذه الشعوب إلى الدراسة الإنسانية إدراكاً للحقائق الكبرى الخالدة التي تهتدي بها البشرية، والتي يهتدي بها الأفراد على حد سواء!! (٢٨).

وحتى يتيسر للمربين بناء الخبرة كان لابد من إيجاد تنسيق بين العوامل التي يتعرض لها الناشئ ضمن جدران المدارس والمعاهد والجامعات، وما يتعرض لها خارج هذه الجدر، وذلك حتى يكون تكامل في بناء الخبرة وعدم نقض لبعض جوانبها. إذ كثيراً ما نشكو المثبطات التي تعمل على هدم الخبرة التي نبنيها في المدارس عندما نعلّم اللغة العربية في مراحل التعليم العام، وقد عرض أستاذنا- رحمه الله- هذه المشكلة داعياً إلى تكامل الخبرة قائلاً: «إننا في مراحل التعليم العام الثلاث: الابتدائية والإعدادية والثانوية نرعى تعليم العربية ونتعهدها ونسهر عليها ونجهد في أن نطابق بينها وبين الألسنة. ولكن جهود وزارات التربية كلها وملايين المعلمين والمدرسين والأساتذة تنقض نقضاً في المؤسسات الأخرى مثل الصحافة حيناً والإذاعات المرئية والمسموعة حيناً آخر، وهي هذه الوسائل القوية الملحة الدؤوب التي تهاجمك ليل نهار حتى تسكن أذنيك وحتى تحملك على الإنصات إليها، إن كان هناك سبيل إلى أن يكون الإنصات أمراً ندفع إليه ونحمل عليه. هذه الوسائل تحللت من كثير من ضوابط العربية، إنها تناقض عمل

التعلم وتنقضه. ويبدو دائماً هذا المشهد المبكي: وزارات التربية تملأ القربة من فوق، ومؤسسات أخرى تحدث في هذه القربة ما استطاعت من ثقوب. أولئك يبنون السفينة أو يحاولون بناءها، وهؤلاء يخرقون أطرافاً منها دون أن يجدوا من يأخذ على أيديهم. ويعود الجهد العربي الضائع على نحو ما يبدو في كثير من الساحات الأخرى حقيقة ماثلة، ويوشك أن ينتهي المرء إلى أن كثيراً مما تقوله الصحافة وكثيراً جداً مما تذيعه الإذاعة وكثرة فاحشة مما يقوله المسرح إنما هو نقيض الذي تقيمه المدرسة». (٢٩).

وإذا كان – رحمه الله– قد دعا إلى التكامل في بناء الخبرة فإنه دعا في الوقت نفسه إلى استمراريتها، فها هو ذا يشير إلى الربط بين الماضي والحاضر في تدريس الأدب قائلاً: «إن دراسة تاريخ الأدب العربي هي بطبيعتها بجانب أصيل من طبيعتها دراسة تطورية بمعنى أنها دراسة تضرب في اتجاهين: معرفة القديم الذي كان ومعرفة الجديد الذي تبع، ثم ماذا في هذا القديم من تحويل له أو خروج عن أصوله؟ وماذا في هذا الجديد من آثار القديم وسيطرته وأبحاثه وعمله في تكوين هذا الجديد على النحو الذي صار إليه دون غيره من الأنحاء التي كان يمكن أن يؤول إليها. إن هاتين الوجهتين المتكاملتين وإحداهما ليست إلا الوجه الثاني للأخرى هي حقيقة الدراسة الأدبية العربية، ومع ذلك فلا يزال هناك كثرة بالغة من الدارسين يتناولون العصور التالية دون أن تكون معرفتهم بالعصور الأولى مجزية في أن تضمن لهم القدر الذي يتمنون لأبحاثهم من الأصالة والعمق. إن ثقافتهم العامة ودراساتهم الجانبية قد تكون من الغزارة على حد يضمن لهم أن يكتشفوا عناصر الخبرة التي جاءت أثراً للتفاعلات العميقة بين جوانب الحياة، وأن يفسروا بعض الاتجاهات، ولكن دراساتهم تظل تحتاج إلى هذا الخيط الآخر، الذي يربط بين الثمرة القديمة والثمرة الجديدة، بين الغصن الناشئ والنسغ الممتد من أعماق الجذر إلى قلب الساق ليغدو بعد هذا الغصن الناشئ، هذا الخيط الذي يرصد تحول الثمرة القديمة حين تندفن في الأرض غذاء للثمرة الجديدة وجزءاً منها مستكناً فيها».(٣٠)

ويقول عن تحقيق ديوان النابغة: «هذا عمل أردت منه أن أصل بين تراثنا وواقعنا بعروة جديدة وثقى، وفي عقلي وقلبي دائماً أن استمرار الاتصال بين التراث والواقع، بين الماضي والحاضر هو الذي يعطي وجودنا الإنساني لا معناه الأصيل المتميز فحسب بل إنه ليهبه كذلك

وفوق ذلك قدرة لا تعد لها قدرة أخرى على تجاوز كل عقبة من هذه العقبات التي تنتشر على طريقنا، وكأنها نباتات سامة». (٣١)

ويعزز هذا الاتجاه في مقالاته إذ يقول: «إن معرفتنا بالماضي هي التي تمكن لنفوسنا في نفوسنا، وإلا فليس هناك نمو حياة الفرد وفي حياة الجماعة أشنع من هذا الضلال: أن نضل أنفسنا فلا نجدها، وأن ننشدها فلا نقع عليها، أو لا نقع عليها إلا من خلال هذه الصورة المشوهة، التي تزرع في أذهاننا وقلوبنا زرعاً هدفه أن تخلق في تذوقنا هذه المرارة لهذا التاريخ وفي أفئدتنا هذا الفتور منه، وفي طباعنا هذه الكراهية له. وفي وجودنا الحاضر هذا التنافر منه، حتى لا يكون لنا لا وجود قديم نستمد منه، ولا وجود جديد نطمئن له، ولا وجود مستقبل نتطلع إليه، وحتى لا يكون لنا مثل هذه الدوافع والحوافز التي لابد منها في حياة الشعوب كما أنه لابد منها في حياة الأفراد.

إن هذا هو المعنى الكبير الذي نقصد إليه حين نتحدث عن التراث وعن إحياء التراث وعن النظر في هذا التراث وعن نشدان الأصالة من خلال هذا التراث.

إننا لا نريد التراث لا مشغلة عن الحاضر ولا ملهاة عنه ولكننا نريده فهماً لجذور هذا الحاضر، وتغذية له قدر ما تكون التغذية مفيدة، ونريده نفياً للشبهات التي تحيط به لا تأكيداً لهذه الشبهات، كما نريده معاونة على رسم المستقبل، نرسمه نحن ولا يرسم لنا، ونحمي براعمه قبل أن تقتل هذه البراعم رياح جليدية أو رياح حارة من هنا وهناك. إن اهتمامنا بالتراث ليس زينة من الزينة، ولا زخرفة من الزخرف، ولكنه وجود من الوجود، ونقاط خلفية للوجود المتقدم». (٣٢)

ويعود يؤكد هذا المنحى في مقالة أخرى حيث يقول: «البحث في حاضر اللغة العربية أو في ماضيها أو في مستقبلها بحث متكامل الجوانب، إن اهتمامنا بالماضي منها هو نوع من المعرفة ومن الإحياء ومن رعاية الجذور والاهتمام بها حتى تظل طريقاً إلى النمو ومن تتبع السيرة ومن مراقبة التطور، وإن اهتمامنا بحاضرنا هو اهتمام بالواقع الذي نحيا فيه ومعاناة كاملة لأشيائه وتمرس بالأسماء والمسميات ونهوض بالأمانة الصعبة التي ألقت بها الأقدار على هذا الجيل منذ دفعت به إلى صميم الحضارة المعاصرة دون مشاركة منه فيها.

وإن اهتمامنا بالمستقبل هو استكمال لهذا الاهتمام بالماضي والحاضر لأن إيماننا بمستقبلها

هو جزء من عقيدتنا، ولعله أن يكون أصل الأجزاء. فلغتنا يجب أن تستوعب هذين الجانبين الرئيسيين من حياتنا: حياتنا الاجتماعية من طرف وأفكارنا ومثلنا وتطلعاتنا وتنظيم هذه الأفكار وصياغة هذه التطلعات وتحقيق هذه المثل من طرف آخر. ولهذا يبدو الحديث من جانب ما عن ماضي هذه اللغة أو حاضرها أو مستقبلها حديثاً متكاملاً يقود بعضه إلى بعض، بل لعله يقود إلى شيء كثير من التداخل. إن الجذر الضارب في أعماق الأرض ليس بعيداً عن الثمرة التي تتدلى من الغصن، والفرع المنبثق عن الساق هو ساق أخرى، وبين ماضي اللغة وحاضرها ومستقبلها مثل ما بين الجذور وبين الثمرة من صلات القرب والنسب. (٣٣)

وطبق أستاذنا المرحوم هذا الاتجاه منذ بدايات عمله في تأليف الكتب المدرسية، ففي كتابه «الفنون الأدبية» وهو كتاب مدرسي يشتمل على نصوص مختارة من الأدب العربي القديم والحديث كان قد ألفه عام ١٩٤٦ لتلاميذ السنة الثالثة من المدارس المتوسطة يقول فيه «وجهدت أن تكون هذه السنة الدرسية موصولة الحلقات بما قبلها وما بعدها، موصولة بما قبلها في انتهاج تصنيف الفنون الأدبية وفي مد جوانب هذا التصنيف والتوسعة في أطرافه، بحيث تكون الفنون أكثر استيفاءً وأوسع شمولاً حتى يغدو الطالب قادراً على الإحاطة والتمييز بينها والتعرف إلى خصائصها، وموصولة بما بعدها في محاولة التمهيد للدراسة الأدبية وحل النصوص والتعمق فيها». (٣٤)

وإذا كان أستاذنا قد حمل لواء الخبرة المستمرة داعياً لها ومطبقاً إياها وهو مبدأ تربوي تطمح التربية المعاصرة إلى تحقيقه في تبنيها التعلّم الذاتي والتربية المستمرة، فإنه ليتألم من عزوف مثقفينا عن متابعة الاطلاع المستمر إذ يقول: «إن من أبرز نواحي النقص في حياتنا الثقافية أن مثقفينا يقطعون ما بينهم وبين ثقافتهم الجسور حين يعبرون إلى الحياة العامة، إنهم لا يلاحقون هذه الثقافة عن طريق المجلة أو عن طريق الكتاب مثلاً..لذلك سرعان ما يتوقفون عن النمو في هذا النحو، ثم تذوي هذه النبتة في نفوسهم ويضمر وجودهم الثقافي، فإذا هم أقرب إلى الجهالة منهم إلى العلم، وإذا هذه الثقافة التي اكتسبوها أول العهد لا تكاد أمام التقدم المستمر للفكر أن تفي بحاجتهم وتنهض لمتطلبات الحياة، فيتقهقرون ويتأخرون من حيث لا يشعرون، لأن التوقف في الحياة التي تغذ السير معناه العلمي التأخر والتقهقر». (٣٥)

وما أسمى هذه الدعوة التي يدعو إليها أستاذنا في هذا العصر المتطور والمتوثب، عصر التفجر المعرفي والانتشار الثقافي الخاطف والمواصلات السريعة، عصر العلم والتقانة «التكنولوجيا»!، وإن عدم مواكبة روح هذا العصر وطبيعته معناه التخلف والتقهقر.

**٦- وحدة اللغة:**

يعد علماء اللغة المعاصرون «الألسنيون» اللغة نظاماً متكاملاً بحيث إن أي جانب من جوانبها يؤثر في غيره ويتأثر به. كما أن المربين ينظرون إلى اكتساب اللغة على أنه وحدة متكاملة، وأن المهارات اللغوية كل متكامل وأن فروع العربية كلها ليست إلا وسائل في خدمة التواصل والتعبير، وإنه إذا نشدنا تعليم اللغة علينا أن ننظر إلى وحدتها، وعلى هذا النحو سار أستاذنا، فقد أدرك بحسه التربوي العميق وبصيرته النافذة أن تعليم اللغة من خلال المطالعة يتطلب الالتفات إلى القواعد والتراكيب والمعاني والتربية الجمالية فها هو ذا يقول في كتاب «الفنون الأدبية»: «كان لزاماً أن أجعل من بعض المناسبات في دروس النصوص الأدبية سبيلاً لتذكر القواعد الماضية واسترجاعها والإفادة من تطبيقاتها».(٣٦)

ويود أن يجعل الألفة بين الطالب والمعجم بحثا عن المعاني وتوخياً لزيادة الثروة اللفظية اللغوية فيقول: «ونحن نردد دوماً ذكر هذه الهوة بين تلاميذنا ومناهجنا، وإن بعض هذه الهوة ليعود إلى المعاجم، ولكن بعضاً آخر منها يعود إلى عدم التقرب منها، والتمرس بها حتى يوشك أن يجوز الطالب دراسته الثانوية لا يفتح معجماً أو لا يدري كيف يفتحه، فكان لا مناص إذاً من تكليف الطالب بعض الأسئلة التي تتلافى هذا النقص وتستأصل هذه المعايب». (٣٧)

ويشير أيضاً إلى تحبيب الطالب بالمطالعة «القراءة» من خلال النصوص التي يتفاعل معها إذ يقول: «وليس من غرض كتاب ما من كتب المطالعة أن يستقطب كل اهتمام الطالب وكل هواه في القراءة والمطالعة وإنما هو سبيل لإثارته وتشغيف ميوله وتنمية هذه الميول، وحين لا يفعل الطالب شيئاً إلا أنه يعنى بالكتاب الذي بين يديه يكون قد وأد ميله إلى القراءة وقتله قتلاً. وما أشد ما نشكو انصراف الطلاب عن المطالعة ورغبتهم عن المكتبة، وهذه الصلة المقطوعة بينهم وبين دور الكتب، وذلك كله يفسر حرصي على إرشاد الطالب إلى نصوص أخرى مماثلة أو مناسبة في ختام الأسئلة. وأنا أومن أن الاحتفال بها والعناية فيها ستكون بعيدة الأثر عظيمة الفائدة، وسنتلافى كل هذا الذي نألم له عند التلاميذ من ضيق الأفق والركون إلى هذه الدوائر الضيقة الهادئة التي يحددها الكتاب والدرس».

ولا ينسى أخيراً أن يشير إلى التعبير الذي كان يسمى في تلك الفترة إنشاءً فيقول:

«ودروس المطالعة مثل دروس اللغة الأخرى تستهدف كلها البيان صحة أولاً وجمالاً ثانياً، ولذلك استثرت انتباه الطالب من هذه الناحية بهذا السؤال الخاص عن الإنشاء، واقترحت فيه موضوعاً يكتبه، وبينه وبين الموضوع الذي يقرؤه صلة واشجة ونسب قريب». (٣٨)

**٧- وظيفية اللغة ونفعيتها الاجتماعية:**

حملت التربية المعاصرة لواء الاتجاه الوظيفي والنفعية الاجتماعية في تعليم اللغة، ورأت أن لا فائدة ترجى من تعليم موضوعات لا تستعمل في الحياة ولا تلبي حاجات المتعلمين في تفاعلهم مع المجتمع.

وإذا كان هذا الاتجاه قد أدركه سلفنا على يد الجاحظ وخلف بن حيان الأحمر البصري من القدماء وعلى يد الأستاذ إبراهيم مصطفى والدكتور طه حسين والأستاذ أمين الخولي والأستاذ عبد العليم إبراهيم من المعاصرين فإن أستاذنا – رحمه الله- أدرك هو الآخر أن النصوص الأدبية التي نقدمها لناشئتنا ينبغي لها أن تلبي حاجاتهم، وتستثير اهتماماتهم، وأن تتنوع بحسب تخصصاتهم، فها هو ذا يقول: «نرى أن تدريس الأدب العربي تطور في واقعه إلى الصورة التي يمكن أن نقول عنها إنها الصورة التي ينبغي أن تكون في حدود ظروفنا الفكرية وآفاقنا الثقافية ومؤسساتنا التعليمية، ولكن هذه الصورة المثلى لا يمكن أن تكون سواء في كل مراحل التعليم، ففي التعليم العام الذي يقود إلى الشهادة الثانوية ثم يقود إلى الجامعة يمكن أن نقبل هذه الصورة مطمئنين. أما في التعليم المهني الزراعي أو الصناعي أو التجاري فإن تدريس الأدب يحسن، بل يجب أن يتلون بما تمليه طبيعة هذا التعليم المهني في اختيار النصوص الأدبية والحقب الزمنية: (٣٩)

وإذا كان رحمه الله قد دعا إلى تبني هذا الاتجاه فإنه قد طبقه عملياً في كتاب «نصوص الأدب» إذ يقول: «روعي في انتقاء هذه النصوص حاجة الفرع الأدبي والعلمي والنسوي، إذ جعلنا ألفاً بين قوسين في رأس النصوص الخاصة بالفرع الأدبي، وعيناً بين قوسين للنصوص الخاصة بالفرع العلمي، ونوناً بين قوسين للفرع النسوي. أما النصوص التي تركت بغير إشارة فينبغي أن تدرس في الفروع الثلاثة جميعاً. (٤٠)

### ٨- الطريقة التنقيبية والتعلّم الذاتي:

من المبادئ الأساسية التي كان يدين بها التزامه الطريقة التنقيبية في التدريس، والتي هي أساس للتعلّم الذاتي واكتساب مهاراته ومن ثم إلى التعلّم المستمر مدى الحياة. لذلك كان يضيق ذرعاً بالطريقة الإلقائية التلقينية التقريرية التي تقدم الحقائق والأحكام لقمة سائغة إلى الدارسين من غير أن يعملوا ذهنهم ويعانوا في سبيل الحصول على تلك الحقائق، وهذا ما يفسد الذوق لديهم ويعوّدهم المحاكاة العمياء والتعميم والسلبية والاتكالية، لنستمع إليه يقول: «حين تملأ مثل هذه الآراء الدروب على الطلبة، وحين تطالعهم أول ما تطالعهم في دراساتهم الجامعية، تحتل الصدارة من أذهانهم، لأنها تصادف منهم خلاء فتتمكن، وتحتل الصدارة من قلوبهم لحداثة عهدهم بها من ناحية، وسيطرة الحرف المطبوع عليهم وسحره فيهم من ناحية أخرى، فإنها لا تقف عند ذلك وإنما تنزلق بهم إلى تقبّل هذا الذي يلقونه تقبّلاً تاماً، يوشك أن يبلغ حدّ القداسة، وتدفعهم إلى ترديده والإعادة فيه وإلى الاكتفاء به والاتكاء عليه، فلا يحاولون بعد ذلك أن يكوّنوا لأنفسهم وبأنفسهم رأياً، ولا ينفذون في أقطار الدراسة من غير الوجه الذي نفذت منه هذه الآراء، وينصرفون عن استكناه النصوص التي هي الأصل الأول في العمل الأدبي إلى التعلق الاتكالي على هذا المؤلف أو ذاك. (٤١)

ويتابع قائلاً: «إن الأمر عند ذاك يخرج بالتعليم الجامعي عن أن يكون تمرّساً إلى أن يؤول تقليداً أو يفسد طبيعة المعاناة فيه فيخرج بها إلى الاحتذاء أو التلقين، وطلابنا حين يكون هذا شأنهم لا يخسرون هذه المنابع الصافية والنقية لدراساتهم، لا يخسرون مادة هذه الدراسة فحسب، وإنما يخسرون متعة التذوق الأدبي التي تكون وراءها، ومتى كان هنالك هذا الفصل بين تذوق الأثر الأدبي وبين حسن الحديث عنه؟». (٤٢)

ومن هنا كانت دعوته إلى التمرّس بالنصوص الأدبية ومعاناتها وإلى تبنّي الطريقة التنقيبية في استكناه هذه النصوص في أغلب آثاره، ففي تحقيق ديوان النابغة يقول: «إننا لا نريد أن يركن الطلاب إلى شروح المحدثين ولو بلغت حظها من الصحة، إن لهم أن ينظروا فيها وأن يفيدوا منها، ولكنهم ماداموا يعدون أنفسهم للتخصص في الدراسات الأدبية لابد لهم من التمرّس بأساليب المتقدمين في الشرح بلغتهم وتعابيرهم والتفاتاتهم إلى هذه أو تلك من المسائل. إنهم في حاجة إلى أن يصلوا ما بينهم وبين هذه الأساليب معاناة لها وتعرّفاً، فهذا هو التعرّف الكامل

الذي يقوم على الممارسة والمعاناة هو الذي يكفل أن يخرج منهم النبتة الطيبة، وهو الذي يزودهم بالقوة القوية على مواجهة التراث بعين نافذة مثل عين هدهد، وصبر هادئ كصبر حجر على نار». (٤٣)

وفي بحثه عن «مناهج تدريس الأدب» يدعو أيضاً إلى ضرورة الانطلاق من النصوص ومعاناتها فيقول: «إنّ الارتباط بالنصوص يخرج مادة الأدب العربي من ميدان الظن أو الافتراض أو التقدير إلى ميدان الحقيقة التي إن لم تكن هي الحقيقة بعينها فإنها تكون أقرب ما تكون إليها... هذا دون أن ننسى أن الاستشهاد بالنص يحتاج إلى قدر من الحذر ومن حسن النية ومن إيقاع الاستشهادات في مواقعها. وليس هذا فحسب بل إن الارتباط بالنصوص والانطلاق منها يمكّن المدرس والطالب من تنمية نزعة النقد، ويساعد على معاناة النصوص ومداخلتها وفتح مغاليقها، فلا تكون دراسة النصوص دراسة سطحية ببغاوية تعاود تزداد ما قاله الشاعر سعيداً بلغة النثر، وإنما تكشف عن مضامينها وتشارك في إضاءتها فيؤدي النص الأدبي وظيفته من حيث هو خبرة خاصة أو كشف خاص يصل إليه الشاعر ثم يوصله بعد ذلك إلى المتلقي حتى يتحد ما بينهما. وشيء ثالث وراء الارتباط بالنصوص والانطلاق منها يتبدى في إثارة رغبات القراء والمطالعة عند الدارس الأدبي، إنَّ فهم الأشياء هو الذي يدفع إلى متابعتها، ونحن إنما نقصد من تدريس الأدب إلى أن نحكم ما بين الطالب وما بين الاستزادة من قراءته وتنمية ملاحظاته وتوسعة أفقه الأدبي ويمد أبعاد هذا الأفق"(٤٤).

**٩– تحديد المشكلات بالأسئلة:**

كان أستاذنا محمد قدري لطفي – رحمه الله – يقول: "إن تحديد المشكلة نصف حلّها"، ذلك إذا عرف المرء الهدف الذي يسعة إليه تساعده هذه المعرفة على اختيار الوسائل والسبل المؤدية إلى تحقيق الغايات.

ومن السمات التي يتم بها المنهج الفكري لأستاذنا الراحل أنه يصوغ مشكلاته محدّداً لها بالأسئلة، ففي مشكلة التطور الاجتماعي والتطور اللغوي يسأل: ما الصلة بين النمو الاجتماعي والحياة اللغوية؟ وكيف نستطيع أن نفهم هذه الصلة على نحو نحكم معه قيادها فلا يفلت من بين أيدينا زمام اللغة؟ ولا يمضي التفجر على نحو عشوائي وإنما يخضع الأمر إلى حركة متساوية مع حركة البنى الاجتماعية، ما الذي نريده من النمو أو الاتساع الاجتماعي؟ ما المفهوم الواضح لهذين التعبيرين؟ وهل من فرق بينهما؟ وما وسائل الممارسة التي تحكم التكامل بين التطور الاجتماعي والتطور اللغوي؟ وما الأساليب التي تأخذ بها؟ وما هي السمات الأساسية للواقع الاجتماعي والواقع اللغوي؟ (٤٥).

وتجدر الإشارة إلى أن صوغ هذه الأسئلة يتطلب الفهم والدقة والعمق والوضوح ويساعد على تعرف السبل.

وفي بحثه عن مشكلة اللغة العربية في الأدب المعاصر يتساءل هل هنالك حقاً هذه المشكلة التي يشير إليها هذا العنوان المقترح؟ أين تقع هذه الإشكالية وما أبعادها؟ ومن هم الذين يعانون منها وكيف يعانونها؟ وما الدلالات البعيدة للأصوات التي ترتفع بها؟ وهل بلغ ما بين اللغة والأدب المعاصر حد الأزمة أو حد المشكلة التي تستحق أن تطرح؟ من أين يجيء هذا الحديث في هذه العقود الأخيرة عن شيء اسمه "المشكلة بين اللغة العربية وبين الأدب المعاصر"؟ ومن هم هؤلاء الأدباء الذين تحدثوا عن ذلك وأثاروه؟ هل هي مشكلة اللغة أم هي مشكلة أولئك الذين يستخدمون اللغة؟ هل يتحدثون عن إنتاج الأدب في لغة ما أو يتحدثون عن تعليم اللغة التي يكون بها إنتاج هذا الأدب؟ (٤٦)

ويتساءل عن أقسام الخريدة المتمثلة في أربعة أقسام أساسية: الأول قسم العراق، والثاني العجم وفارس وخراسان، والثالث الشام، والرابع مصر وصقلية والمغرب وبلاد الأندلس ليقول:

"ويبدو أنه لم يكن وراء هذا التقسيم هدف واضح مقنع، ذلك أننا لا نستطيع أن نتبين في دقة ما الذي كان يوجهه إليه، ولا نملك أن نحرز في طمأنينة ما الذي يدفعه نحوه أكان يلمح من وراء صنيعه هذا جانب الحياة السياسية لهذه الأفكار؟ أم كان يلمح جانب التميز في إنتاجها الشعري؟ أكان يشير إلى التقسيمات الجغرافية الكبرى أم كان يشير إلى الحدود السياسية الغالبة؟ هل كان الكبرى أم كان يشير إلى الحدود السياسية الغالبة؟ هل كان على جانب من الإحساس بأثر البيئة المادية والمعنوية أو كان على جانب أكبر من التأثر بالواقع والانسياق معه؟ أكان يخالف عن تقسيمات الذين سبقوه حيناً ويوافقها حيناً من مثل صنيع الثعالبي في يتيمة الدهر والباخرزي في دمية القصر وعصرة أهل العصر عن تنبه لنحو من أنحاء البحث الأدبي أم كان يخالف ويوافق على غير قاعدة نيرة أو سبب ملزم؟ (٤٧).

وفي معالجته لمشكلة عدم إسهام المجتمع العربي في الحضارة الحديثة يقول: «إن الإنسان العربي والأرض العربية والتاريخ العربي واللغة العربية كلّها عوامل مساعدة على المشاركة الحضارية فلماذا توقفت هذه المشاركة؟ ولماذا لا يزال المجتمع العربي في صف المجتمعات الإنسانية المستهلكة للحضارة التي لا تزال بعيدة عن المشاركة في صنعها؟ لماذا يظل الوطن العربي خارج دائرة الإسهام الحضاري؟ هل هناك في نطاق التيارات الكبرى التي تسود العالم وتحكمه ما يحول بين الأمة العربية وهذا الإسهام؟ وإذا كانت الظروف الطبيعية المرئية لا تساعد عليه فهل هو إبعاد مقصود لهذه الكتلة البشرية العربية؟ هل هناك عملية تقنين وتقييد لهذا الإسهام يراد منها أن تقتصر على شعوب دون شعوب وعلى جماعات دون جماعات؟ هل هناك سياسة مرسومة يراد منها أن يبقى هذا العالم على هذه القسمة: عالم ينتج الحضارة وينعم بجناها وآخر محمول على أن يكتفي باستهلاكها أو باستهلاك الجانب المادي وفي أحيان كثيرة الجانب التافه منها؟» (٤٨)

وعندما يبحث في الأصالة والتجديد في المقال الأدبي يقول: «عندما نتحدث عن المقال في التراث الأدبي نجد أننا نواجه سؤالين ينتصبان أمامنا وكأنما يريدان أن يكون لهما في الدلالة على الطريق نصيب، وفي تحديد جنبات الموضوع أثر، أحدهما هو هذا السؤال: ماذا تعني كلمة «مقال» في التراث العربي القديم؟ والآخر ماذا تعني هذه الكلمة عند المعاصرين؟ ثم يكون السؤال الثالث تتمة لهما في إطار الموضوع واستكمالاً للحديث عنهما وهو: ما هي عناصر

الأصالة وظواهر التجديد في المقال الأدبي؟ وما هي العوامل التي قادت إليها والأحداث التي ساعدت عليها؟ إن الأسئلة الثلاثة تتضامن لتكون بأجوبتها وبما يتفرع عنها من قضايا وبما تثير من وجهات النظر الصورة الأكمل فيما يبدو في معالجة الموضوع» (٤٩).

أما فيما يتعلق بمشكلة مناهج تدريس الأدب في الوطن العربي فيصوغ أسئلتها على النحو التالي بعد أن يمهّد لها قائلاً: «إنها قضية وجوهها كثيرة وبخاصة حين تكون هذه القضية في مثل هذا التنوع والامتداد. إنها تتصل بالنصوص التي نضعها بين أيدي طلابنا في مراحل التعليم العام، الإعدادي والثانوي ثم في مرحلة التعليم الجامعي، وتتصل بالطريقة التي تقوم بها هذه النصوص وبالهدف الذي نحاول تحقيقه، أهو هدف واحد أم هي أهداف متعددة؟ وما هو مدى تداخل هذه الأهداف وتكاملها؟ ثم هي تتصل بالتكوين النفسي العام الذي نريد أن يأخذ به طلابنا فليس هناك مادة أخرى أشد تأثيراً وأقوى عملاً في هذا التكوين من هذه المادة ومواد الدراسات الإنسانية الأخرى التي تواكبها، ثم هي قبل ذلك وبعد ذلك تتصل بتراثنا القديم وبإبداعنا الجديد وفي تباين هذا التراث وهذا الجديد إلى أن ينزل منزلته في نفوس أبنائنا فماذا نأخذ من هذا التراث في هذا التدريس وماذا ندع؟ كيف نختار وما هي الأسس التي نقيم عليها اختيارنا؟ وكيف نصل هذا القديم وهذا الجديد وبينهما هذا الصدع؟ كيف نرأب هذا الصدع حتى يتشكل هذا الأدب الذي نقدمه على سطح مستو أملس من غير التواءات؟ وأخيراً فإن هذه المادة تتصل بلغتنا وفي الترسيخ لمحبة هذه اللغة في عقولنا وقلوبنا وفي التمكين لها على ألسنتنا وطرائق تفكيرنا، وفي تسخيرها على نحو يتيح للمبدعين فرص الإبداع من غير كبير مشقة أو عسر؟ (٥٠).

وعندما يسوغ سبب تسمية ابن عساكر كتابه «تاريخ دمشق» يقول معللاً ذلك بالأسئلة «إن ابن عساكر سمى كتابه «تاريخ دمشق» بنوع من التخصيص، ذلك أننا حين نعرض الكتاب نجد أن المؤلّف لا يقدم لنا تاريخاً دمشقياً ولا تاريخاً شامياً فحسب، وإنما يقدم تاريخاً حضارياً لهذه البلاد كلها التي انتشر فيها الإسلام وسادت العربية، إنه يؤرخ لجوانب من الجاهلية وللسيرة النبوية وللخلفاء الراشدين. ومن الطبيعي أن يكون كتاب «ابن عساكر» أغنى المصادر عن تاريخ الأمويين، ولكن تاريخ الأمويين ليس تاريخهم فحسب، وإنما هو تاريخ العرب والمسلمين في الفترة

التي كانت فيها دمشق عاصمة الحياة العربية.

وما أكثر ما تواشجت الصلات في القرن الأول في مقر الخلافة وهل كانت الجماعات العربية بكبار رجالاتها أو أرهاط قبائلها في غنى عن زيارة الشام والوفود على الخلفاء والاستجابة لندبهم في هذه البعوث أو تلك، في الفتوحات البرية أو في الفتوحات البحرية؟ ألم تكن الشام في السلم والحرب في معارك صفين أو حركات العراق والحجاز، في البعوث نحو أفريقيا أو نحو القسطنطينية هي مهاد هذا الملتقى الكبير الذي انصهرت فيه القبائل وامتدت أمة واحدة هنا نحو أقصى الشرق، وهناك نحو أقصى الغرب؟ ألا يؤكد ذلك كله عندنا أن هذا التاريخ هو تاريخ للعالم الإسلامي كله من خلال هذه العدسة الضوئية الصغيرة المكبرة "دمشق".

هل كانت الشام بمعزل عن الحياة والمشاركة فيها في القرون التي تلت قيام الدولة العباسية؟ ألم يدخلها علماء وخلفاء وقواد؟ ألم يرتحل منها فقهاء وشعراء وولاة وقضاة كان لهم في صياغة تاريخ العرب والمسلمين جميعاً نصيب؟ (٥١)

تلك هي أبرز السمات في المنهج التربوي للدكتور شكري فيصل رحمه الله وإن فاتني منها أمور أخرى، فحسبي أنني نقبت وبحثت في أغلبية آثاره لا في كلها وهداني التنقيب والبحث إلى تلك السمات. ولا يسعني في نهاية هذا البحث إلا أن أردد العبارة التي أنهيت بها مقالة كتبتها بمناسبة رحيله بعنوان "ويأفل نجم" (٥٢): "رحمك الله يا أبا معتز رحمة واسعة بقدر عطائك لأمتك ولكم كان عطاؤك غنياً وكبيراً وواسعاً!".

## حواشي البحث

١- المجتمعات الإسلامية في القرن الأول- نشأتها – مقوماتها – تطورها اللغوي والأدبي "رسالة دكتوراه – مطابع الكتاب العربي بمصر عام ١٩٥٢ ص ت.

٢- حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول "دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية" – مطابع دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٢ ص ل.

٣- أبو العتاهية، أشعاره وأخباره – مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.

٤- الصحافة الأدبية – معهد الدراسات العربية – القاهرة ١٩٦٠ ص٩.

٥- تحقيق ديوان النابغة الذبياني بتمامه – صنعة ابن السكيت – الإمام أبو يوسف يعقوب بن إسحاق – دار الفكر للطباعة والنشر – لبنان بيروت ١٩٦٨ ص ج.

٦- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب – بداية قسم شعراء الشام – شعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيوب – المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٦٨ ص١٠.

٧- المرجع السابق – ج١ المطبعة الهاشمية بدمشق عام ١٩٥٥ ص٧.

٨- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة – مطبعة جامعة دمشق ١٣٧٩هـ-١٩٥٥م ص٧.

٩- المرجع السابق ص٨.

١٠- المرجع الأول ص(ص).

١١- المرجع السابق.

١٢- خريدة القصر وجريدة العصر – مرجع سابق ص١٦.

١٣- خريدة القصر وجريدة العصر – ج٢ قسم شعراء الشام ١٩٥٩ ص٩.

١٤- الصحافة الأدبية – مرجع سابق ص٢٨.

١٥- المرجع السابق ص٣٨.

١٦- مجلة مجمع اللغة العربية – المجلد ٤٧ كانون الثاني ١٩٧٢ مقال بعنوان "الأصالة والتجديد في المقال الأدبي" ص٧٥٣.

١٧- خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء الشام ج٣ ص٢٤.

١٨- أبو العتاهية، أشعاره وأخباره – مرجع سابق ص١٣.
١٩- كتاب الوافي بالوفيات – تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ج١١ ثامر – الحسن دار النشر فرانز شتاينر بفيسادان ١٤٠١هـ-١٩٨١م ص٤٣٣.
٢٠- مناهج الدراسة الأدبية، عرض ونقد واقتراح – القاهرة ١٩٥٢.
٢١- الصحافة الأدبية – مرجع سابق.
٢٢- اللغة العربية خلال ربع قرن في ميدان التعلم والتعليم – مجلة مجمع اللغة العربية المجلد (٥٣) عام ١٩٧٨ ص٧٤٣.
٢٣- حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول – مرجع سابق ص(ط).
٢٤- الأدب العربي في آثار الدارسين – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦١ ص٣٠٧.
٢٥- مجلة الكاتب العربي – مناهج تدريس الأدب في الوطن العربي – السنة ١ محرم ١٤٠٢هـ-تشرين الثاني ١٩٨١م.
٢٦- تحقيق ديوان النابغة الذبياني – مرجع سابق ص(دوه)؟
٢٧- أبو العتاهية – مرجع سابق ص١٧.
٢٨- مجلة المعرفة – العدد ٧٧ تموز ١٩٦٨، مقال بعنوان "كليات الآداب في الوطن العربي بين الأصالة والتبعية" ص٥٦.
٢٩- مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤٧، مقال بعنوان "ثغور على الخريطة اللغوية" ص٦٥٥.
٣٠- تحقيق ديوان النابغة – مرجع سابق ص(ز).
٣١- المرجع السابق ص(س).
٣٢- مجلة المعرفة، العدد ١٥٨ تموز ١٩٧٧، مقال بعنوان "العرب المعاصرون والتاريخ العربي" ص١٧٧.
٣٣- ثغور على الخريطة اللغوية – مجلة المجمع – مرجع سابق ص٦٤٩.
٣٤- الفنون الأدبية "نصوص مختارة من الأدب القديم والحديث" مطالعة للمدارس المتوسطة السنة الثالثة – المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٦.
٣٥- الصحافة الأدبية – مرجع سابق ص٢١.

٣٦- الفنون الأدبية – مرجع سابق ص(ب).

٣٧- المرجع السابق ص(ج).

٣٨- المرجع السابق.

٣٩- مناهج تدريس الأدب في الوطن العربي – مجلة الكتاب العربي، السنة ١، مرجع سابق ص٦٣.

٤٠- نصوص الأدب – تأليف خلدون الكناني وشكري فيصل – مطبعة دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر – دمشق ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م ص٢.

٤١- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام – مرجع سابق ص٦.

٤٢- المرجع السابق ص٧.

٤٣- تحقيق ديوان النابغة – مرجع سابق ص(م).

٤٤- مناهج تدريس الأدب في الوطن العربي – مجلة الكاتب العربي – مرجع سابق ص٦٥.

٤٥- مجلة المعرفة – التطور الاجتماعي والتطور اللغوي – العدد ١٨٣ أيار ١٩٧٧ – ص٤.

٤٦- مشكلة اللغة العربية في الأدب المعاصر – مجلة المعرفة العدد ١٨٩ تشرين الثاني ١٩٧٧ ص٥٤.

٤٧- خريدة القصر وجريدة العصر – ج٣ ص٤ قسم شعراء الشام.

٤٨- نحو حضارة عربية جديدة – مجلة المعرفة – العدد ١٥٦ شباط ١٩٧٥.

٤٩- الأصالة والتجديد في المقال الأدبي- مجلة مجمع اللغة العربية- العدد ٤٧ كانون الثاني ١٩٧٢.

٥٠- مناهج تدريس الأدب في الوطن العربي- مرجع سابق ص ٥٩-٦٠.

٥١- تحقيق تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر- مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٧هـ - ١٩٧٦م ص٧.

٥٢- الدكتور محمود السيد- جريدة البعث السورية تاريخ ١٩٨٥/٨/١٨.

**الدكتور أمجد الطرابلسي**

**العضو العامل في مجمع اللغة العربية بدمشق**

ولد الدكتور أمجد الطرابلسي في دمشق سنة ١٩١٦، وقد عانى اليتم صغيراً عند وفاة أمه في الثانية من عمره ووفاة أبيه في التاسعة من عمره، وتلقى تعليمه الأول في كتاتيب دمشق وتطبيقات عنبر، وحصل على الثانوية عام ١٩٣١، وعيّن معلماً في جبات الزيت بالقنيطرة عام ١٩٣٥، وانتسب عام ١٩٣٦ إلى دار المعلمين العليا وحصل على شهادتها، فندبته وزارة المعارف لتدريس اللغة العربية في ثانوية الكلية العلمية الوطنية، ونجح عام ١٩٣٨ في مسابقة التخصص في الأدب، فسافر إلى فرنسا لإكمال دراسته حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون عام ١٩٤٥، ثم عاد إلى سورية ليعمل أستاذاً للأدب العربي في مدرسة التجهيز ودار المعلمين بدمشق، وبعدها أستاذاً في كلية الآداب بجامعة دمشق: حيث درّس فيها من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٨، وأصبح عميداً لكلية الآداب عام ١٩٤٧ فوزيراً للتربية والثقافة والتعليم العالي في الإقليم السوري من الجمهورية العربية المتحدة إبان الوحدة بين سورية ومصر. ولما حدث الانفصال بينهما عام ١٩٦١ هاجر إلى المغرب ليدرّس الأدب العربي في جامعات الدار البيضاء والرباط وفاس وليشرف على ما يزيد على ستين رسالة في الماجستير والدكتوراه. توفي في باريس وكان عمره آنذاك ٨٤ عاماً ودفن فيها.

من مؤلفاته: النقد واللغة في رسالة الغفران، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب، محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام، زجر النابح للمعري، نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس الهجري، مقتطفات، اللغة والأدب.

انتخب مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق في جلسته التي عقدها يوم السبت الواقع في ١٩٦٠/٥/٢٨ الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي عضواً عاملاً فيه خلفاً للأستاذ محمد البزم، وصدر قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة ذو الرقم ٥٧ والتاريخ ١٩٦١/٢/١٤ بتعيينه عضواً عاملاً في المجمع، وكان عضواً في لجنة الأصول في المجمع عام ١٩٧٧. وفي أثناء عمله بالمغرب من عام ١٩٦١ إلى ١٩٩٠ ظل على صلة بالمجمع، ولم ينقطع عنه، فقد كان حريصاً في أثناء زياراته لدمشق على زيارة المجمع والاتصال بزملائه المجمعيين، ويطلع على ما يقومون به، ويشاركهم في مباحثهم والقضايا التي يطرحونها، ويبادلهم الرأي.

## كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيّد بمناسبة استقباله
## عضواً في مجمع اللغة العربية خلفاً للأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي رحمه الله
## ٢٠٠٢/٢/٦

**أيتها السيدات، أيها السادة، أيها الحفل الكريم:**

أحييكم أجمل تحية، وأوجه تحية العرفان بالفضل والشكر الجزيل لمجمع اللغة العربية رئيساً وأعضاء على الجهود التي يبذلونها في تحقيق نبل الرسالة التي يضطلعون بها في خدمة لغتنا العربية الخالدة، رمز كياننا القومي وعنوان شخصيتنا العربية وهويتنا الذاتية، وفي الحفاظ على فكر أمتنا العربية متمثلاً في لغتها، وما الفكر واللغة إلا وجهان لعملة واحدة.

والشكر الجزيل أزجيه إلى أستاذيَّ الفاضلين الدكتور شاكر الفحام والدكتور محمد إحسان النص على ما أسبغاه عليَّ من صفات، ليست إلا أمارة على ما يتحليان به من نبل محتد وكرم أرومة.

وإنني لأحس بالعجز عن إيجاد الكلمات المعبرة عما أحس به من سعادة، وأنا أقف هذا الموقف أمام أساتذتي الأجلاء الذين رشحوني لهذا الموقع، وفسحوا لي في المجال للانضمام إلى أسرتهم المجمعية العريقة وشرف الانتساب إليها، آملاً أن أكون محط ثقتهم الغالية التي أعتز بها ما حييت.

يرجع عهدي بمحبة لغتنا والتعلق بها إلى أيام طفولتي في المرحلة الابتدائية عندما تتلمذت على يد معلمينا الأفاضل الذين غرسوا في نفوسنا الغضة آنذاك محبة العربية وأكسبونا مهارات الإعراب وحفظَ روائع الشعر، ولم نكن بعدُ قد تجاوزنا المرحلتين الابتدائية والمتوسطة. وتعززت هذه المهارات في المرحلة الثانوية إذ كنا نتبارى نحن الطلاب آنذاك بعقد حلقات الرد على قوافي الأبيات الشعرية، وكانت تستمر المباراة ساعة، ليتعالى التصفيقُ بعدها للفائز في هذه المساجلة الشعرية. وطالما حزت جائزة التصفيق ليدفعني هذا التعزيز إلى القراءة والبحث في دواوين الشعر المتوافرة في المكتبة عن الأبيات الشعرية التي تبدأ بحرف معين ليكون زادي في المسابقة القادمة كافياً للحفاظ على المرتبة الأولى.

ولم يكن ليخطرَ ببالنا نحن الطلابَ آنذاك أننا سنتخصص في دراستنا الجامعية باللغة العربية وآدابها، إذ إن بعض المجلّين في تلك المساجلات تخصصوا فيما بعد في الطب، كما أن بعضهم الآخر تخصص في الهندسة، ورسم لي القدر أن أتخصص في اللغة العربية في دراستي الجامعية الأولى.

كان لأستاذنا المرحوم الدكتور أمجد الطرابلسي دور في إرشادي إلى هذا التخصص، إذ كان لكلماته أوقع الأثر في نفسي، وكان آنذاك وزيراً للتربية والتعليم في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة، وقد جئته شاكياً ظروفي الصعبة بعد حصولي على الشهادة الثانوية بتفوق، ونجاحي في المسابقة المعلن عنها للحصول على الدكتوراه في الأدب الروسي، ولم يكن لي حظ الإيفاد.

لقد تعاطف معي في تلك الفترة العصيبة التي فقدت فيها الصديق الصدوق أمي الحنون والتي كان لها الفضل الكبير في حثي على الدراسة ونشدان التفوق بعد فقدان والدي من قبلُ، وزودني بسلاح التفاؤل لأتخطى به الصعاب الحائلة، وأرشدني إلى منهجية التعلم الذاتي والاعتماد على النفس في بناء الذات معرفياً، وأدركت فيما بعد السرّ في ذلك التعاطف، إذ إنه يرجع أولاً إلى جبلّته الإنسانية ورقة مشاعره ونبل عواطفه، كما يرجع إلى أن ثمة قاسماً مشتركاً جمع بيننا ألا وهو اليتم إذ التقينا على أشجانه، ((اليتم)) ويالها من كلمة تعتصر الفؤاد، وتنفذ إلى قلب الجماد، لقد أشبهت حاله حالي في فقدان الوالدين.

وعندما قابلته وذكرت له يتم الوالدين معاً، لم أكن لأعلم أنه كابد ما كابدت وعانى ما عانيت، ورحم الله شاعرنا إذ يقول:

وفي كل عين يلوح الأسى ولكن لمن ذاق طعم الأسى

ومعذرة من الشاعر إذا استبدلت كلمة «الأسى» بـ «الهوى».

كانت دراسة الطرابلسي رحمه الله في أثناء طفولته في كتاتيب دمشق وفي المدارس الرسمية، ودرس الثانوية في مكتب عنبر، وقد بدأ نبوغه في وقت مبكر، فها هي ذي قصائده «اليتيم، وعاصفة في قلب، وعرس في مأتم» تنشرها مجلة الرسالة، ولم يكن عمره آنذاك يتجاوز السادسة

عشرة، وأصبح شعره يتردد على شفاه المثقفين في الوطن العربي، وكان لمكتب عنبر وبيئته الثقافية دور في تكوينه الثقافي كما كانت حياته المدرسية والعملية بعد ذلك مثالاً في الجدية والإخلاصِ في العمل والحرص على الأداء الأمثل والأرقى والأكمل.

عمل معلماً في جباتا الزيت في محافظة القنيطرة في العام الدراسي ١٩٣٥-١٩٣٦م، وملأ التعليم والتوجيه والإرشاد والتثقيف عليه وجوده، إذ لم يكن يرى أحلى من حياة الطفولة والمدرسة على حّد تعبير أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل.

انتسب عام ١٩٣٦م إلى صف المعلمين العالي، وبعد أن حصل على شهادته، ندبته وزارة المعارف آنذاك لتدريس اللغة العربية في ثانوية الكلية العلمية الوطنية.

ثم سافر عام ١٩٣٨م إلى فرنسا للتخصص في الأدب العربي، وبعد عودته إلى سورية عام ١٩٤٥م وحصوله على الإجازة والدكتوراه، عمل مدرساً في ثانوية التجهيز «ثانوية جودة الهاشمي حالياً» ثم اختير لتدريس الأدب العربي في كلية الآداب بعد افتتاحها أواخر عام ١٩٤٦م.

كان رحمه الله مثالاً للجدية والمثابرةِ والإيثارِ والإخلاصِ في عمله الجامعي، وتعد السنوات التي قضاها في عمله الجامعي سنواتِ السعادة على حد تعبيره لأنه كان يبني العقولَ والنفوس، وليس ثمة بناءٌ يماثل بناء العقول والضمائر شرفاً وجلالاً ورحم الله شوقياً إذ يقول:

أرأيت أشرف أو أجل من الذي  يبني وينشئ أنفساً وعقولا

وبعد أن أمضى في كلية الآداب اثنتي عشرة سنة تسلّم وزارة التربية في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة ثم وزارة الثقافة مضافة إليها بعد ذلك، ثم وزارة التعليم العالي في الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة، إلا أن أحلامه الواسعة في عهد الوحدة أصيبت بالإحباط إثر كارثة الانفصال، ولكن إرادته القوية وعزيمته الجبارة دفعتاه إلى النضال في مغرب الوطن العربي بعد أن اختاره المغرب أستاذاً للأدب العربي والأدب المقارن في جامعاته، واستمر في عمله هناك حتى التسعينيات يبني عقول نفر من طلبة العلم ورواده، ليسهموا بعد ذلك بإشرافه في مسيرة الحركة العلمية والثقافية في المغرب العربي، في الوقت الذي انصرف فيه آخرون إلى بناء الحجر، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

يبني العقول، وغيرُه يبني الحجر شتان بين بنائهم وبنائِهِ

**أيتها السيدات، أيها السادة:**

تلك هي فكرة موجزة جداً عن سيرة راحلنا والأعمال التي مارسها. أما ما خلّفه وراءه من نتاجه الفكري فيتسم بالرصانة والجدية والأصالة، ومن هذا النتاج رسالته للدكتوراه التي حصل عليها من جامعة السوربون بباريس عام ١٩٤٥م وعنوانها «النقد الشعري عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري» وقد ترجمها إلى العربية الدكتور إدريس بلمليح في الدار البيضاء بالمغرب. ولقد أشار المترجم في مقدمة ترجمته إلى أن حبه للدكتور الطرابلسي وتعلقه بالتراث العربي دفعاه إلى صنيعه فها هو ذا يقول: «إن الدكتور أمجد الطرابلسي علمني الاعتزاز بالتراث العربي والإسلامي، وعلمني قراءة هذا التراث وبلورته دونما أدنى شعور بالخوف عليه، أو الادعاءِ بأنه قد يشوه في ضوء ما يظهر من مناهجَ علميةٍ جديدةٍ وتياراتٍ فكرية مستحدثة».

ولقد أحاط الدكتور الطرابلسي في رسالته بالمفاهيم الشعرية لدى النقاد العرب القدماء، وتتبع تطور هذه المفاهيم في تفاصيلها، وركز على الحِقبةِ الممتدة من أواخر القرن الثالث الهجري إلى ظهور ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣هـ .

وتعد هذه الحِقْبَةُ من أكثر الحِقَبِ ازدهاراً مما جعله يختارها موضوعاً لبحثه.

كان رحمه الله من محبي أبي العلاء المعري والمعجبين به، وكشف النقاب عن جوانبَ من إبداع أبي العلاء، فكتابه «النقد واللغة في رسالة الغفران» أبان فيه الجانب النقدي الأدبي والتصوير المبدع، كما أبان فيه الجانب اللغوي والتعليمي، وما الكتابُ إلا مجموعةُ المحاضرات التي ألقاها على طلاب شهادة آداب اللغة العربية في الجامعة السورية خلال العامين الدراسيين ١٩٤٩/ ١٩٥٠م و١٩٥٠/١٩٥١م.

ولقد ألقى الضوء من خلالها على شخصية المعري كما تتجلى في رسالة الغفران، وهو يرى في المعري من خلالها كاتباً عظيماً متوثب الخيال عجيب التصاوير، ذكي التهكم، وقاصاً بارعاً يستأسر لب القارئ، ويبهَرُ بصره بأشخاص قصته من ملائكة وجن وأناسي، وعالماً واسع الاطلاع على فنون الأدب وعلوم اللغة، وناقداً من الطراز الأول نشيط الفكر، ذكياً متمكناً من

أدوات النقد كل التمكن.

ولقد أبان الطرابلسي من خلال تحليله لرسالة الغفران أن أبا العلاء المعري لم يكن مجرد شاعر وكاتب عظيم، بل كان أيضاً عالماً وأستاذاً عظيماً في الأدب وعلوم العربية، وكشف في الوقت نفسه عن الطريقة التعليمية التي كان يتبعها أبو العلاء في كتبه، تلك الطريقةِ التي تمزُج بين الفن الرفيع والعلم العميق مزجاً حكيماً.

كما عمل رحمه الله على تحقيق كتاب «زجر النابح» لأبي العلاء وقام المجمع بطباعته عام ١٩٦٥م وأعيدت طباعته عام ١٩٨٢م، وهو أحد التصانيف العلائية التي تكشف عن الصراع الذي كان يدور في حياة أبي العلاء نفسه حول آثاره وآرائه ومسلكه في حياته بينه وبين نفر من خصومه.

وغني عن البيان أن أبا العلاء وجهت إليه تُهَمٌ شككت في معتقده، ولكن الطرابلسي حاول انطلاقاً من منهجيته العلمية وموضوعيته أن يبين بواعث هذه التهم قائلاً: «ومبعث هذه التهم في الأكثر الغالب أمور ثلاثة: «أولها: مسلك المعري في حياته، ونسكه وزهده وترهبه وامتناعه عن أكل الحيوان وما ينتجه» وثانيها: «كتاب الفصول والغايات» وهو كتاب أملاه المعري بأسلوبه المنمق المعروف في تمجيد الله وحمده، فزعم خصومه أنه أراد به معارضة القرآن، وقد نُشر بعض أقسام هذا الكتاب منذ سنين، فقضى نشرُها على هذه المزاعم الواهية، وثالثها: وهو الأهم ديوانه المشهور «لزوم ما لا يلزم» وما ورد فيه من أقوال لا يخلو بعضها من جرأةٍ وعنفٍ ونقدٍ قاسٍ لرجال الأديان وأصحاب المذاهب والطرائق من كل ملة وطائفة. كما لا يخلو بعضها الآخر من غموض يبعث على التساؤل والاستفسار، ويثير الكثير من التأويل والتقويل.

ويبدو أن أبا العلاء آثر التزام الصمت تُجاه من طعن عليه في مضمون أبياته لولا أن بعض أصدقائه ومحبيه ألحوا عليه أن يدفع عن نفسه التشرر والأذية، فأملى «زجر النابح» وهو كاره كما يقول ياقوت في معجم الأدباء، وفيه يوضح المعري كثيراً من أقواله التي ضمنها لزومياته، ويسفّه رأي الطاعن عليه فيها، منددا بفهمه الملتوي حيناً، وبتأويله المتجني في معظم الأحيان، وينساب كلام المعري في كثير من تعليقاته هادئاً صافياً لا تعكره ثورة ولا يهيجه غضب، ولكنه

يخرج في بعضها عن هذا النهج الرضى فيذهب في مخاطبة الخصم وتوهين آرائه، وتفنيد مزاعمه مذاهبَ فيها الكثيرُ من السخرية أو العنف.

وقام الطرابلسي أيضاً بتحقيق رسالة «الصاهل والشاحج» للمعري انطلاقاً من اهتمامه بآثار أبي العلاء ومحبته له. وورد الكلام في هذه الرسالة على لسان فرس وبغل، وليس معنى هذا أن الحوار سيقتصر على الشاحج والصاهل في الكتاب كله، فهناك حيوانات أخر تتدخل في الحوار مثلُ الجمل والثعلب وغيرِهما، وكان أبو العلاء قد صنف رسالته للأمير عزيزِ الدولة أبي شجاع والي حلب، إذ يشيرُ ابنُ العديم إلى أن أسباب تأليف هذه الرسالة تتمثل في أنه رُفِعَ إلى عزيز الدولة أن حقاً وجب له على أرض يملِكُها بعض أقرباء المعري، فأملى أبو العلاء هذه الرسالة يسأل فيها والي حلب الصفحَ عن هذا الحق.

ويعد كتاب «الصاهل والشاحج» حلقة من سلسلة ما صنف في الأدب العربي نثراً وشعراً على ألسن الحيوانات، وفي الكتاب بحوث لغوية وصرفية ونحوية عديدة ومتشعبة، ويجمع أيضاً كل ما يتصل بالعروض والقافية والضرورات الشعرية، وهو مفعم بالشعر النادر والأساطير والأخبار والأمثال، ولأستاذنا المرحوم الدكتور الطرابلسي الفضلُ في تحقيق هذا الأثر الجليل للمعري ودراستِه.

وكان له خارج دائرة المعري إسهامات فكرية اتسمت بالوظيفية ومساعدة الباحثين في العثور على ضالتهم في أثناء التنقيب عن أمهات الكتب في تراثنا العربي، وهل يمكن لباحث من طلبة الجامعة السورية في كلية الآداب في النصف الثاني من الخمسينيات وفي عقد الستينيات أن ينسى كتاب «نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب» في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافية، وهو من مطبوعات الجامعة السورية عام ١٩٥٥م. ويشتمل الكتاب على الدروس والمحاضرات التي ألقاها على طلاب شهادة الثقافة العامة في كلية الآداب، وكان يهدُفُ من خلال كتابه إلى أن يكوّن لدى الطلاب فكرة موجزة وواضحة عن بعض نواحي النشاط الفكري عند العرب حتى فجر النهضة الحديثة. كما رمى إلى دلالة الطالب الجامعي على المراجع والمصادر الهامة التي هو بحاجة إليها لاستكمال أدوات بحثه، إذ لابد لطالب العلم من أن تكون خبرته بالمصادر والمراجع عميقةً وشخصيةً كي يستطيع الإفادة منها بنفسه دون كبير مشقة. ولا يعد الباحث

متمكناً من أسلوب العمل إلا إذا كان في وسعه أن يعثر بنفسه على المصادر التي تقتضيه طبيعةُ بحثه الرجوعَ إليها.

وكان يرى أن البحوث العلمية القيمة توصف بأنها مبتكرة، ولكن ليس معنى ذلك أن صاحبها يجيء من عنده بكل شيء، بل إن البحث العلمي المبتكر هو في الحقيقة البحثُ المستوعبُ الذي لا يتجاهل صاحبُه شيئاً مما كُتب قبله في موضوعه. وبغيرِ هذا الاستيعاب العلمي الضروري لا يمكن للبحث الجديد أن يُسّجِلَ في مضمار العلم خطوةَ التقدم التي لابد منها ليكون مبتكراً.

ومما يزيد هذا الكتاب أهمية أنه ركز على الجوانب التطبيقية العملية، فعرض لمعاجم الألفاظ وأبدى عدداً من الملاحظات على المعاجم العربية القديمة، كما عرض لمعاجم المعاني. وفي مجال التأليف في الأدب وقف على أشهر المجموعات الشعرية المصنفة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وأوضح منهجية كتب الأدب في القرن الرابع الهجري، ثم أشهرَ الكتب المصنفة في تراجم الأدباء واللغويين والنحاة.

ولقد جمع الطرابلسي بين الأصالة والمعاصرة، ولئن كان وقف جلّ اهتماماته في أبحاثه على تراث أمته الأدبي واللغوي إن في دراسته القيمة عن النقد الشعري عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، أو في دراسته المعمقة والمستأنية عن النقد واللغة في رسالة الغفران، أو في تحقيقه لبعض آثار أبي العلاء مثل «زجر النابح» و«الصاهل والشاحج» أو في نظرته التاريخية الثاقبة في حركة التأليف عند العرب، فإنه في كتابه «شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام من أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين» قد انتقل بنا إلى العصر الحديث إذ إنه عرض لمساحة شعرية امتدت على مدار نصف قرن من القرن العشرين في موضوع واحد ألا وهو الحماسة والعروبة، والكتابُ مجموعةُ محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية في معهد الدراسات العربية العالية التابعِ لجامعة الدول العربية، ونشرها المعهد عام ١٩٥٧م والمقصود بالشعر الحماسي الشعرُ الذي نظمه الشعراء في معارك النضال القومي ممجدين فيه بطولاتِ الأبطال والشهداء، منددين فيه بمظالم المستعمرين وأحابيلهم، مستحثين فيه همم مواطنيهم كي يَمضوا قدماً في الكفاح حتى يستردوا حقوقهم المهضومة. ولم يكن الكتاب سرداً لشعر الشعراء

وإنما كان يعقب على الشعر ناقداً لمساراته في إطار من المنهجية والوضوح والتذوق الأدبي الرفيع بلغة واضحة وبعبارات دقيقة ومعبرة.

**سيداتي وسادتي:**

إذا كان شاعرنا العربي القديم يقول:

قـــد عرفنـــاك باختيـــارك إذ كـــا ن دلـــيلاً علـــى اللبيـــب اختيـــاره

فإن شاعرنا المرحوم الدكتور الطرابلسي قد عرفناه في اختياره أشعار «شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام من أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين» إذ اختار الشعر الذي يمجد فيه الشهادة والشهداء، واختار الشعر الذي يدعو فيه إلى الوحدة العربية ويندد فيه بالقطرية والإقليمية، فقد كان تحقيقُ الوحدة همه القومي، واختار الشعر الذي يدعو إلى الوحدة الوطنية وينبِذُ الطائفية والتزمت المقيت، واختار الشعر الذي يعتز بالتراث العربي الإسلامي وبالانتماء إلى الأمة العربية وماضيها المجيد الذي يشكل حافزاً يدفع إلى الأمام، واختار الشعر الذي يعزز القيم الإيجابية من إحساس بالأنفة والكبرياء والشموخ والعزة القومية.

والواقع أن هذا الاختيار إنما يعبر أيما تعبير عن شخصيته ونفسيته، إذ كان رحمه الله يتسم بالشموخ والإباء وبالاعتداد والكبرياء، وكان ثائراً على الظلم، داعياً إلى العدالة ومواقف العزة، هازئاً ببطش الطغاة فلنستمع إليه يقول:

أحـــب الفـــتى والغُـــلُّ يُثقـــل عنقـــه وســـيف الأعـــادي بـــين عينيـــه يُشْـــهَرُ
يصـــيحُ بـــأعلى صـــوته ينكـــر الأذى ويضـــحك مـــن بطـــشِ الطغـــاةِ ويَسْـــخَرُ
ويشـــمخ بـــالأغلال رأســـاً وإن غـــدت تُحَـــزُّ ومـــن أنيابهـــا الـــدم يَقْطُـــرُ
وأحتقـــر الأحـــرار يحنـــون رأســـهم ولـــيس علـــيهم ســـيّد أو مســـيطر
إذا كـــان قلـــبُ المـــرءِ عبـــداً ورأيُـــه فقـــل لي – هُـــديت الخـــيرَ – مـــاذا تحـــرر؟

ولقد تأثر الطرابلسي بأستاذه المرحوم الشاعر محمد البزم في شعره النابض بالثورة على الاستكانة والهوان، والداعي إلى استعادة المجد العربي المتألق بهمة عالية وعزيمة جبارة، إذ يقول

البزم:

المجـدُ حيـث قـراعُ السـمر والقضـب والعـزُّ في صـهوات الضـمّر النجـب
مـن لم يكـن سـيفه يـوم الـوغى كلمـاً لم تجـده الحـرب غـير الـذل والحـرب
وأخجـل النـاس ذكـراً مـن إذا وثبـت أعـداؤه تنتحـي الهيجـاء لم يثـب
هبـوا إلى المجـد والأيـام شـاهدة بهمـةٍ تـذر الأيـام في عجـب

ولقد عرفناه من اختياره موضوعات محاضراته، ومن هذه الموضوعات «الأدب العربي بين الأدب القومي والإنساني» «تأملات وذكريات في حرم المسجد الجامع في قرطبة» و«شعراء الشام والفكرة العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين».

ويتضح من خلال هذه العناوين اعتزازُه بتراثه وبالاتجاه القومي في أدبنا العربي وبالنزعة الإنسانية لقوميتنا العربية التي تروم خير الإنسان أنّى كان، وتقف إلى جانب المستضعفين انطلاقاً من قيمها ومثلها في تجسيد الحق والخير والجمال فكراً ونزوعاً وممارسة وأداءً.

لقد آمن بالعروبة ماضياً مجيداً وتراثاً خالداً ولغة شاعرة موّحدة وموحدة، وكانت طموحاته القومية واسعة الآفاق، وأدنى مناه دولة عربية توحّد بين أبناء الأمة، إذ يقول:

أدنى منانـا دولـة عربيـة شمَّـاءُ تـرأب صـدعنا وتوحّـد
يرضـى بهـا شـهداؤنا ودماؤنـا وفخارنـا الأسمـى الأعـزُّ الأتلـدُ

وعلى الرغم مما كان ينتابه من مشاعر الإحباط أحياناً، بقي مؤمناً بالمستقبل المشرق لأمته. وفي تقديري أن رجالاتِ الإصلاح وأصحابَ الرسالات يتخذون الرجاء سلماً لتجاوز الصعوبات، والتفاؤل باعثاً ودافعاً لتخطي العقبات، فلنستمع إليه يقول:

لا يرعـك الظـلام إن مـلأَ الكـو نَ فـإن الصـباح سـوف يـؤوب

وكأنه ينطق بلسان أبي القاسم الشابي إذ يقول:

لا ألمـح الظـل الكئيـب ولا أرى مـا في قـرار الهـوة السـوداء
وأظـل كالجبـار أرنـو دائمـاً للفجـر الجميـل النـائي

وبلسان أبي ماضي عندما يقول:

قــل لمــن يبصــر الضــباب كثيفــاً  إن تحــت الضــباب فجــراً نقيــاً

ومعذرة منكم أيها السادة، فلست بمتخصص في النقد الأدبي حتى أتمكن من أن أوفي شاعرنا الطرابلسي حقه من حيث الإبداع، ولم أجد أجمل من تحليل أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل لبعض من إنتاجه الشعري، إذ إنه أشار إلى ما يتسم به شعره من لغة مصقولة ولفظ مختار وتعبير قوي حتى وصف بالسهل الممتنع، كما أشار إلى موسيقاه الشعرية متمثلة في الأشكال الشعرية التي سكب فيها شعره وفي الأبحر التي استخدمها، وأبان الروح التي كانت له والعواطف التي كانت تنبجس من خلال الروح متمردة على التشاؤم بعد أن كانت تنوس بين اليأس والرجاء، وبين الواقع الأسود والأمل الباسم.

ولقد وقف على ظاهرة الحنين في شعره، وعلى شعر الأوابد والآثار، وعلى ما اتسم به شعره من تجديد واضح تمثل في كثير من صوره وموسيقاه وموضوعاته.

**سيداتي وسادتي:**

معذرة منكم مرة ثانية إذا كنت لم أتمكن من رصد سيرة حافلة بالنضال والعطاء والإبداع لعلم من أعلام أمتنا، ولم أجد أصدق من وصف أستاذنا الدكتور شكري فيصل لهذه السيرة المتميزة عندما استقبله المجمع عضواً عاملاً، إذ يقول فيه «لقد كان لك تميزك في سيرتِك الذاتية وسيرتِك الأدبية، في سيرتك العلمية، وسيرتك الإدارية، في سيرتك الوطنية والقومية والإنسانية، وفي كل ذلك قطعت الطريق من أوله إلى آخره من غير قفز ولا وثوب، قطعته معانياً متمرساً من المرحلة الابتدائية، إلى الثانوية، إلى الجامعية، إلى كرسي الوزارة الفاضلة، وكنت هذا الإنسان الذي بلا الحياة وجربها وذاقها في كل خطوة منها.

إن حياتك كلَّها كاتباً وشاعراً ومحاضراً وباحثاً، في مراحلِها كلّها معلماً وأستاذاً ووزيراً، في أقطارِها كلّها في وطنك هنا الصغير في دمشق أو في عاصمة الوحدة الأولى في القاهرة أو في المغرب، هذا النسيجُ المتصل الزاكي المتنامي لحمته من الصلابة في الحق، وسَداهُ من الدقة في المعرفة، وصِبْغَتُه من الرهافة في الحس».

وليس ثمة أحلى من هذا البيان المرهف في وصف تلك السيرة العطرة الزاخرة بالقيم والتي يجدر بأجيالنا أن تتخذ منها قدوة ومثالاً في الجدية والأصالة والوطنية والانتماء والإخلاص والإيثار.

**سيداتي، سادتي:**

لقد أشرت في مستهل حديثي إلى فضل أساتذتي في مراحل التعليم العام، وأذكر منهم الأساتذة الذين انتقلوا إلى رحمة الله: سمير بشور وعزيز بشور وأديب الطيّار وحنا الطيار وسليم عرنوق والشيخ عبد الستار السيد، والأساتذة الذين مايزالون على قيد الحياة أمد الله في أعمارهم ومنهم الأساتذة: رفيق بشور، بهجت جبور، عطية ريشة، محمد علي يونس.

وستبقى صورة المربي الفاضل الأستاذ المرحوم سليم عرنوق مدير ثانوية بني طرطوس راسخة في الذهن، ومازال أحتفظ في مكتبتي بالكتابين اللذين قدمهما إليّ هدية مكافأة على حيازتي الدرجة الأولى في امتحانات الصف الثاني الثانوي، وهذان الكتابان هما: البؤساء وملقى السبيل، وكان لهديته القيمة وتهنئته وقع وأي وقع في النفس والقلب والوجدان.

هذا وإن لتأثير الكلمة الطيبة في النفس تأثير الغيث في التربة، إذ إن كلاً منهما ينعكس خصباً ونماءً. وهل يمكنني أن أنسى عبارة «فعله كالأسل وأخلاقه كالعسل، يصلح للطلاب قدوة ومثالاً» والتي سجلها أستاذنا الشاعر المرحوم أديب الطيار بخط يده على جلائي المدرسي في الصف الثالث من المرحلة المتوسطة؟.

وهل يمكننا أن نتصور أيها السادة فعل هذه الكلمات في حث الطالب على استمرارية التفوق والحرص على السمعة الأخلاقية؟.

ولا يمكنني إلا أن أقف وقفة وفاء وعرفان بالفضل والجميل لأساتذتي في كليتي الآداب والتربية بجامعة دمشق، فلقد كان لهم فضل كبير في تكويني اللغوي والتربوي، وإنني إن أنسَ فلا يمكنني أن أنسى الأساليب التربوية التشجيعية والجذابة التي كان يستخدمها أستاذنا المرحوم شكري فيصل الذي كان له فضل في تدريبي على البحث في كلية الآداب عندما كان يكلفنا كتابة حَلَقاتِ بحثٍ في السنتين الثالثة والرابعة. ولكم كنت أحس بالاعتزاز عندما أنهي البحث وأقدمه إليه وأبقى

مترقباً إعادته ليسجل ملاحظاته على هوامشه بخطه الصغير، بعبارات فيها من التشجيع ما فيها، وهذا ما كان يدفعني إلى مواصلة البحث وإنجاز أبحاث أكثر مما كان يطلب إلينا، حتى إذا ما أتيتُه في الامتحان الشفهي يقابلني بابتسامته قائلاً: هل سأقوم بامتحانك؟ إن لك علينا الكثير. وكانت هذه العبارةُ تحلِّقُ بي في أجواء من الزهو والافتخار وتمدُّني بدافعٍ لا حدود له من السعي إلى التفوق والحرص على التميز.

ولا يمكنني أن أنسى أستاذنا المرحوم سعيد الأفغاني الذي زودنا بالمهارات النحوية في جو من الجدية والإحساس العالي بالمسؤولية تجاه لغتنا وقواعدها والحرص على سلامتها حديثاً وكتابة وقراءة.

كما لا يمكنني أن أنسى أستاذنا الجليل الدكتور محمد إحسان النص أمد الله في عمره عندما كان مشرفاً على فرقتنا في التربية العملية لمادة اللغة العربية في دبلوم التأهيل التربوي في كلية التربية عام ١٩٦٣م، إذ كان لشخصيته الهادئة والمتزنة وثقافته اللغوية والأدبية الواسعة أكبر الأثر في تقويم ألسنتنا ومحبة لغتنا والحرص على سلامتها. وما أزال أتذكر أن أول درس في التعبير أعطيته في حياتي العملية إنما كان تحت إشرافه، وقد جمعت فيه بين المحسوس والمجرد، وكان ذلك في الصف الأول الثانوي في ثانوية جول جمال بدمشق، ولقد بقيت طوالَ الليل أحضر ذلك الدرس وأجمع الشواهد المناسبة له من آيات قرآنية وأحاديثَ نبوية شريفة وأشعار، ولقد حفظت تلك الشواهد عن ظهر قلب واستشهدت بها في مواضعها، واستخدمت طريقة القدح الذهني أو العصف الدماغي أو استمطار الدماغ في معالجة الموضوع، وكنت أنظر إلى عيني أستاذي من حين إلى آخر لأرى فيهما البريق الدال على الاستحسان والرضى، ألم يقل شاعرنا العربي:

والعين تبدي الذي في نفس صاحبها  من المحبة أو كره إذا كانا

وكان ثناؤه على نجاح الدرس أمام زملائي في مناقشة الموضوع أكبرَ دافع لي على الثقة بالنفس وامتلاك ناصية الدروس الأخرى، وهذا ما دفعني إلى التعلق به ومحبة دروسه، وليس ثمة شيءٌ أجمل من القدوة الحسنة لغة وسلوكاً في جذب الطالب إلى محبة المادة من خلال أستاذها، فكم من مدرس نفّر طلبته من مادته! وكم من مدرس حببّ الطلاب بمادته من خلال ما ضربه لهم من قدوة حسنة ومثل أعلى! وكان أستاذنا الدكتور النص من هؤلاء الذين يؤثرون في نفوس

طلابهم ويدفعونهم إلى الشغف بالمادة وأستاذها معاً.

وممن تأثرت بهم في كلية التربية بجامعة دمشق أستاذنا الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عيّاد عضوا مجمع اللغة العربية رحمهما الله، والأستاذ نعيم الرفاعي مدَّ الله في عمره.

أما أستاذي الذي أشرف على رسالتي في الماجستير والدكتوراه في كلية التربية بجامعة عين شمس فهو الأستاذ المرحوم الدكتور محمود رشدي خاطر الخبير في اليونسكو، فلا يمكنني أن أوفيه حقه ما حييت، فلقد شملني برعايته، إذ رعاني ست سنوات، وهاأنذا ألوذ بالصمت أمام قدسية المشاعر التي أحس بها تجاه ذكراه العطرة. ولقد أهديت كتاباً ألفته عنوانه «اللغة تدريساً واكتساباً» من مطبوعات دار الفيصل الثقافية في الرياض، أهديته إلى روحه الطاهرة وفاءً لذكراه واعترافاً بفضله، فإليه يرجع الفضل في تكويني بالبحث العلمي والدقة في اختيار الألفاظ المفصلة على قد المعنى، والابتعاد عن الأساليب الإنشائية والكلمات ذات الشحنات الانفعالية في أثناء الكتابة العلمية، ولقد كان رحمه الله مشهوراً بشدته، ولكنها الشدة التي تبني والتي من خلالها يحس المرء بقيمة الإنجاز، وأنه مجبول بالعرق والتعب والسهر والأرق، ولقد قيل: من لا يتعب في الحصول على الشيء لا يقدر قيمته.

ومادمت في صدد الإشارة إلى من أسهموا في تطويق عنقي بفضلهم من أساتذتي الأفاضل في مختلف مراحل التعليم كان عليَّ أن أشير بعد هذا وفي حياتي العملية إلى فضل أسرتي الصغيرة زوجاً وأولاداً، الأسرة التي هيأت لي أجواء الانصراف إلى التدريس والبحث والتأليف بعد أن غدوت مطمئناً إلى حرص الأبناء على تفوقهم واعتمادهم على الذات في نيل مراتب التفوق في التعليم العام وفي دراساتهم الجامعية في الدرجة الجامعية الأولى وفي الدراسات العليا.

وثمة فضل لا يمكن أن يوفى مهما يبذل من جهود ويقدم من أداء نحوه، ذلكم هو فضل الوطن الذي نشأت في ربوعه، ويسَّر لي التعليم المجاني في جميع المراحل، واحتضنني حانياً لأشعر بالدفء والأمان على أرضه، وبالاعتزاز والفخار في الانتساب إليه: رسالة خالدة، وماضياً مجيداً، وحاضراً شامخاً بمواقف الكرامة والكبرياء القومي والتمسك بثوابت الأمة، ومستقبلاً مشرقاً بمشيئة

الله.

**سيداتي، سادتي:**

تعلّق قلبي بمجمع اللغة العربية منذ أن كنت أتردد على المكتبة الظاهرية في أثناء دراستي الجامعية في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، وكنت أحس بالمهابة والجلالة أمام صرحه الخالد، وغدت المكتبة الظاهرية الصديق الذي لا يمل المرء مرافقته، كيف لا؟ وفيها غذاء العقول وشفاء الرغبات وتلبية الحاجات، ورافقني حب مجمع اللغة في أثناء دراساتي في القاهرة، حيث كنت أرتاد مجمع القاهرة ليقدم لي أمينه الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رحمه الله كل ما كنت أحتاج إليه من مراجع ومصادر ووثائق، ولأقرأ على يد بعض أعضائه ومنهم الشيخ عطية الصوالحي رحمه الله بعضاً من فصول رسالتي في الدكتوراه ليقدم لي النصح والإرشاد في الجوانب اللغوية، كان ذلك في مطلع السبعينيات، ولم أكن أعلم أن القدر يخبئ لي أن أنتخب عضواً مراسلاً بالإجماع في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مطلع عام ١٩٩٤م بترشيح من أستاذيّ الجليلين الدكتور شوقي ضيف والدكتور كمال بشر مد الله في عمرهما.

ولقد كان ثمة مقال في الصفحة الثقافية من جريدة الأهرام تناول فيه كاتبه الأستاذ سامي خشبة المشرف على الصفحة الثقافية في الجريدة مجمع اللغة العربية بالقاهرة متهماً إياه بالتقصير في تيسير تعليم اللغة العربية، وكنت آنئذ في القاهرة، فشرَّفني رئيس المجمع الأستاذ الدكتور شوقي ضيف أن أرد عليه، واستجبت لطلب أستاذنا فكتبت مقالاً اتسم بالموضوعية والبعد عن العاطفة والانفعال، وتضمن تفنيد الآراء وتقديم الحجج والأدلة في الدفاع عن المجمع ومحاولاته الجادة في تيسير تعليم اللغة العربية.

ولقي المقال بعد نشره في الصفحة الثقافية من الأهرام صدى طيباً في نفوس المجمعيين وفي نفس الأستاذ سامي خشبة صاحب المقال نفسه، فعقب عليه بالشكر والتقدير وزادني ذلك التصاقاً بمجمع اللغة وحماسة في الدفاع عن أهدافه النبيلة ومراميه السامية.

بيدَ أنني كنت أحس بالضيق عندما كان يسألني زملائي في الأقطار العربية ألست عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق؟ كيف تكون عضواً في مجمع القاهرة ولست عضواً في مجمع

دمشق؟ وكنت أجيب: الأمور مرهونة بأوقاتها. وكانت صلتي بمجمع اللغة العربية في الأردن وثيقة حيث دعيت إلى إلقاء عدة محاضرات في مواسمه الثقافية، وكانت أكثر وثوقاً مع أعضاء مجمع اللغة العربية في دمشق حيث ألقيت أبحاثاً في ندواته الثقافية عام ١٩٩٧م وعام ١٩٩٨م، إلى أن يسَّر الله لي هذا الشرفَ الكبيرَ الذي أعتز به في انتخابي عضواً عاملاً في مجمعكم الخالد، راجياً الله أن أكون محل الثقة التي منحتموني إياها، وأن أتمكن من الإسهام في خدمة لغتنا القومية في رحابه إلى جانب كوكبة من علمائه الأجلاء الذين وقفوا أنفسهم للحفاظ على صفاء لغتهم حفاظهم على صفاء عيونهم.

ورحم الله القائد الخالد حافظ الأسد، وطيّب الله ثراه، القائد الذي:

ما عرفناه في الرجال مثيلاً  بل عرفناه في الرجال مثالا

فلقد كان مثالاً في مواقف العزة القومية والشموخ والإباء، ومثالاً في استخدام لغتنا القومية سليمة ناصعة العبارة في خطبه وأقواله. ومن منا ينسى دعوته بناة الأجيال من المعلمين إلى استخدام اللغة سليمة في جميع المناشط اللغوية، وحرصه على سيرورتها نقية وخالية من الأخطاء على ألسنة المتخرجين في الجامعة وأقلامهم وفي مختلف التخصصات بعد أن أصدر المرسوم القاضي بتعليم اللغة العربية لغير المختصين في الجامعة؟.

فإلى روحه الطاهرة أسمى آيات الإكبار والوفاء.

كما أتوجه بأسمى آيات الشكر والوفاء والعرفان بالجميل والولاء إلى من احتضن هذا المجمع برعايته فأصدر قانون مجمع اللغة العربية، ذلكم هو سيّد شباب الأمة، ورائد المشروع النهضوي الحضاري لمجتمعنا في التطوير والتحديث، السيّد الرئيس بشار الأسد.

أكرر لكم التحايا مقرونة بالشكر والتقدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## الدكتور إدوارد سعيد
## الأستاذ الجامعي في المؤسسات الأمريكية

ولد عام ١٩٣٥ في القدس، بدأ دراسته في كلية فكتوريا في الاسكندرية في مصر، ثم سافر إلى أمريكا فحصل على البكالوريوس عام ١٩٥٧ ثم الماجستير عام ١٩٦٠، والدكتوراه عام ١٩٦٤ من جامعة هارفارد. وقضى معظم حياته الأكاديمية في جامعة كولومبيا بنيويورك، وقد عمل أستاذاً زائراً في عدد من المؤسسات الأكاديمية الأمريكية، وكان خير مدافع عن قضية أمته في فلسطين. توفي في أمريكا عام ٢٠٠٣.

**الملتقى الثقافي**

**"فلسطين في فكر إدوارد سعيد"**

**مكتبة الأسد بدمشق**

**بتاريخ ٢٠٠٣/١٢/٣**

**أيتها الأخوات، أيها الأخوة:**

أحييكم أطيب تحية، وأرحب بكم أجمل ترحيب، شاكراً جزيل الشكر لمؤسسة الشجرة للذاكرة الفلسطينية مبادرتها الكريمة لإقامة فعاليات هذا الملتقى الثقافي بعنوان: "فلسطين في فكر إدوارد سعيد".

والواقع لقد كان لفلسطين طابع خاص في فكر إدوارد سعيد. وتتأتى هذه الخصوصية من أفقها الإنساني الممتد والموصول بكل ما هو جميل في الخصوصيات والتعدد، كما تتأتى من السمات الإيجابية لهذا المفكر الدؤوب الإنساني العالمي الموسوعي والحضاري والذي يمثل رمزاً من رموز النخب المثقفة الفلسطينية ومصدر فخرها واعتزازها.

تتسم ثقافته بالشمولية، لأنها تخاطب العقل والوجدان معاً، كما أن من سماتها تعدد الأبعاد، فهو أستاذ أكاديمي للأدب المقارن، وموسيقي متميز، وناقد سياسي، وقارئ متمثل لحركة التاريخ، ومقاوم صلب لكل أشكال السيطرة والظلم والاستبداد، سلاحه في ذلك معرفة موسوعية متميزة وصلابة سياسية متماسكة. وهذه الثقافة الموسوعية تمحو الحدود بين الميادين والتخصصات الأكاديمية المختلفة لأن وحدة الحياة وتكامل المعرفة والخبرات تستلزم الترابط بين الميادين الثقافية والتعامل مع الكلية، ومن هنا اعتمدت استراتيجيته أمرين متكاملين، أولهما الكشف عن الجوانب المهملة والمبعدة في الخطاب، وثانيهما تقديم وجهة النظر التي همشت واستبعدت، أي النظر إلى وجهي الحقيقة، فهو يهتدي بمقولات ميشيل فوكو، لكنه يرى قصوره في تلمس إمكان مقاومة الهيمنة، فولاؤه ليس لزعيم أو مفكر وإنما للإنسان والإنسانية.

يضاف إلى ذلك كله الترابط في ثقافته بين العروبة والعالمية، فقد كان عربياً في عالميته، وعالمياً في عروبته مثلما كان متميزاً بثقافته الشمولية وإنسانيته التي بلورتها قضية فلسطين ليس خارج المكان فقط، بل في كل الأزمنة والأمكنة، فهو بكل معنى الكلمة مواطن عالمي متعدد

الأبعاد الثقافية.

وقف إدوارد سعيد نفسه لقضايا أمته العادلة، ولاؤه للحرية والكرامة الإنسانية، كان موضوعياً في طروحاته لا ينحاز إلا للحق والحقيقة، فلنستمع إليه يقول في كتابه «صور المثقف»: «إن المثقف بحسب مفهومي للكلمة ليس عنصر تهدئة ولا خالق إجماع، وإنما هو إنسان يراهن بكينونته كلها على حس نقدي وعلى الإحساس بأنه على غير استعداد للقبول بالصيغ السهلة أو الأفكار المبتذلة الجاهزة أو التأكيدات المتملقة والدائمة للمجاملة لما يريد الأقوياء والتقليديون قوله أو فعله، ويجب ألا يكون عدم الاستعداد هذا مجرد رفض مستتر هامد، بل أن يكون رغبةً تلقائيةً نشطة في الإفصاح عن ذلك علناً».

وصورة المثقف لدى إدوارد سعيد ترتكز على دعامتين أساسيتين هما: أولاً الانعتاق من كل ما هو إتباعي ومبتذل ومكرس ومجمع عليه، وثانياً الانحياز الدائم إلى جانب المضطهدين والتزام معايير الحق الخاصة بالبؤس الإنساني.

ومن هنا وظّف المفاهيم الجديدة: «البنيوية، السيميولوجية، التفكيكية، ما بعد الحداثة، التعددية الثقافية... إلخ»، وظّف هذه الثقافة الشمولية ليدافع عن المضطهدين، عن وطنه السليب، وليدين الفساد في السلطة حاكمة أو ثورية، وليدلي بدلوه المقاوم على كل الجبهات وفي كل المواقع: في المؤسسة وخارجها، في الجامعة وفي الإعلام، في التلفزة والإنترنيت، في الأدب وفي السياسة، في الفن وفي العلم، انطلاقاً من إيمانه بأنه ليس ثمة مفتاح واحد يحقق النصر، وإنما هناك عمل دؤوب يعيد توازن القوى في صالح المغيَّب والمقهور، ومقاومة تقوم على المبادئ وبرنامج تثقيفي يدافع عن المواطنة وكرامة الحياة الإنسانية.

ولئن كان انتماؤه لفلسطين ونضاله من أجل كرامة إنسانها فإنه انتمى إلى العالم كله ليدافع عن المقهورين والمعذبين والمتألمين في العالم كله، وإذا كان فلسطينياً وأمريكياً في ثقافته وانتمائه أيضاً حتى إنه يستخدم عبارة «نحن الأمريكيين» و«نحن الفلسطينيين» دون حرج أو تردد، إلا أنه لم يكن ليستخدم كلمة «شعبي» إلا للشعب الفلسطيني، لأن فلسطين الضحية أصبحت عنواناً لكرامة الإنسان البسيط الرافض للاستسلام في مواجهة أعتى آلات القمع والظلم، وغدت فلسطين اسماً للنضال الإنساني من أجل الحرية والعدالة، في كل زمان ومكان

انطلاقاً من عدالة قضية شعبه الفلسطيني.

لم يتعرض للتناقض الطبقي، ولكنه تعرض للتناقض الوطني والحضاري، ولم يتبنّ الكفاح المسلح نهجاً جذرياً، ولكنه تبنى المقاومة، وشدّد على العمل المنظم، وعرّى عنف الجلاد، فكان بحق مشروعاً وطنياً إنسانياً ذا بعد عالمي، يطرح نفسه في وسط الحدث التاريخي يؤثر فيه ويتأثر به.

ولم تكن وطنيته ومجاهدته نابعتين من انتمائه إلى شعب فلسطين فحسب، بل من تركيبته النفسية والتربوية والثقافية حتى لو لم يكن فلسطينياً لا يمكن إلا أن يكون في خندق الدفاع عن هذه القضية، لأنها بالنسبة إليه ليست قضية عاطفية بقدر ما هي مسألة حضارية ومبدئية تمس المصير الإنساني في صميم حقوقه في الحرية والكرامة.

ولقد شكلت حرب حزيران عام ١٩٦٧ منعطفاً في مسيرة حياته، إذ بدأ ينعم النظر في هويته الفلسطينية من غير أن يؤثر ذلك في انتمائه الواسع إلى الإنسانية وهو المسيحي الذي لم يألُ جهداً في الدفاع عن الإسلام، إذ بقي ثابتاً في مواقفه، مدافعاً عن الإسلام ديناً وثقافةً ضد الادعاءات العنصرية الأمريكية بعد الحادي عشر من أيلول، وخلافاً للمثقفين العرب في الغرب الذين انضموا إلى الجوقة الغربية بإدانة كل ما هو عربي ومسلم، في حين ظل هو مصراً على دفاعه عن الإسلام والمسلمين ضد التغطية الإعلامية الغربية التي حاولت أن تنزع الإنسانية عن المسلمين، فكانت كتاباته ومحاضراته دائماً مبنية على أنسنة المسلمين والعرب ضد هذا المد العنصري.

والواقع لا يمكن النظر إلى إدوارد سعيد إلا من منظور إنساني، فقد كان في رؤاه وتطلعاته ومنطلقاته الفكرية التي تضمنتها كتبه والتي جاوزت العشرين، وترجمت لأكثر من /٢٦/ لغة، فيلسوفاً إنسانياً يخاطب الإنسان وليس هويته، وكانت حقوق الإنسان عنده واحدة مهما تعددت الهويات أو تنوعت، فها هو ذا يبحث في القواسم المشتركة بين الحضارات والثقافات، ويحارب بعنف الدعوات الهادفة إلى تحويل العالم إلى تكتلات حضارية متصادمة تحت مزاعم نهاية التاريخ وضحية صراع الحضارات، وظل حتى آخر رمق من حياته ثابتاً على مبادئه الإنسانية وعلى قيم العدل وحقوق الإنسان التي كان يذكرها في أحاديثه دائماً، كما كان ناقداً لاذعاً

للظلم والفساد في الدول العربية بصفة عامة وفي الأراضي المحتلة الخاضعة للسلطة الفلسطينية حالياً بصورة خاصة.

ولقد استطاع هذا العالم الموسوعي الثقافة بثقافته الأدبية والموسيقية والفلسفية والإنسانية أن يضع مسألة فلسطين على خريطة العالم بأسره انطلاقاً من أهمية الثقافة في معالجة الأمور وفي سرد حكاية الشعب الفلسطيني الواضحة والجلّية، فالفلسطينيون يدافعون عن حكايتهم بأرواحهم ودمائهم في مواجهة عدو بغيض لم يقتصر هدفه على سلبهم أرضهم وسلبهم قدرتهم على تقرير مصيرهم بأنفسهم، وإنما تعدى ذلك إلى حرمانهم من تاريخهم وماضيهم ومن ثم حرمانهم من حاضرهم ومستقبلهم، وهذا ما يفسر التدمير الإسرائيلي والمحو الإسرائيلي الوحشي لكل آثار الحكاية الفلسطينية من تزوير لأحداث ١٩٤٨، إلى قتل الآلاف من الفلسطينيين، إلى نهب السجلات والأرشيفات الفلسطينية من بيروت عام ١٩٨٢، ومن رام الله عام ٢٠٠١.

ومن هنا كان توقيع اتفاقية أوسلو التي كتبها الإسرائيليون والأمريكيون ووقعها الفلسطينيون قد أثار غضب إدوارد سعيد لأن الفلسطينيين من وجهة نظره قد تخلوا عن مكاسبهم، إذ وصل الفريق الفلسطيني إلى أوسلو من دون خرائط ولا محامين ولا عارفين للقانون الدولي، وبكلمة واحدة وصلوا من دون حكاية يحكونها على نقيض الإسرائيليين الذين وصلوا بصحبة جيش من المحامين والمفاوضين وبحكاية مسجلة بالخرائط والإحصاءات والأوراق، وأكثر ما كان يبعث على الأسى في نفس إدوارد سعيد هو أن الفلسطينيين بعكس الإسرائيليين لا يحتاجون إلى التلاعب بالكلمات لكي يعبروا عن حكايتهم، ففي الوقت الذي يحتاج فيه الإسرائيليون إلى الافتئات لتصوير أنفسهم أولاً ضحايا الهجوم الفلسطيني غير المبرر، وأنهم حملة عروض السلام السخية ثانياً فإن لدى الفلسطينيين حكاية بسيطة وواضحة ليروووها، إنها حكاية حرمان وعذاب ونضال لتحقيق قضية نبيلة، وكل ما عليهم أن يفعلوه أن يلتزموا حكايتهم وثوابتهم وأن يرفضوا التزوير والتلاعب اللغوي والالتفاف حول الحقائق الذي يقوم به العدو بمكر وخبث لا مثيل لهما، وهذا ما جعل اتفاقية أوسلو مجموعة من المتاهات والدهاليز حتى إن القائد الخالد حافظ الأسد قال عنها: إن كل بند من بنودها يحتاج إلى اتفاقيات، وهذا ما أكده إدوارد سعيد في هذا المجال داعياً إلى أن نتعرف عدونا الإسرائيلي جيداً، إذ إن معرفتنا به قليلة جداً، ومعرفتنا بالولايات المتحدة الأمريكية قليلة

أيضاً، وما علينا إلا أن نتعرف بعمق حكايات الطرف الآخر وسطوره وخطابه، وفي ضوء ذلك نكوّن رؤيتنا عن ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

ويرى أن إسرائيل بكل بساطة تشن الحرب على المدنيين، لكنك لا تسمع هذا في الولايات المتحدة الأمريكية، إنها حرب عنصرية استراتيجية وتكتيكاً، البشر هناك يقتلون ويتعرضون لكل ألوان العذاب لأنهم ليسوا يهوداً، ويا لها من مفارقة: إن «سي إن إن» لا تتحدث عن الأراضي المحتلة بل تتحدث دوماً عن العنف في إسرائيل، وكأن ساحة المعركة هي قاعات الموسيقى والمقاهي في تل أبيب وليس مخيمات اللاجئين في فلسطين المحاصرة بما لا يقل عن /١٥٠/ مستوطنة إسرائيلية غير قانونية. وفرضت الولايات المتحدة الأمريكية على العالم خلال السنين العشر الماضية أكذوبة أوسلو الكبرى مغطية على أن ما تمت إعادته إلى الفلسطينيين لا يتجاوز ١٨٪ من الضفة الغربية و ٦٠٪ من غزة، لكن لا أحد يعرف الجغرافيا، والأفضل ألا يعرف، لأن الواقع على الأرض مذهل تماماً على الرغم من كل الدعايات والتهيئة النفسية على حد تعبير إدوارد سعيد.

ولقد فرق بين المعرفة المحض والمعرفة السياسية كالاستشراق مثلاً، لأن المعرفة الاستشراقية هي معرفة سياسية تغطي بقعة في العالم كانت وما تزال محط أنظار الاستعمار والإمبراطوريات الغربية المتعاقبة، والليبرالية العربية تحكم على الغرب من خلال ادعاءاته لا من خلال واقعه.

وهكذا أشار إدوارد سعيد إلى ضرورة التعامل مع الاستشراق بصورة أخرى، إذ إنه مثل الاستشراق المضاد، فهو عربي شرقي خاض الدراسات الشرقية من وجهة نظر عربية، وصحح كثيراً من المفاهيم لدى المستشرقين الغربيين الذين حاولوا فرضها على الساحة الدولية.

وأثرت كتابات إدوارد سعيد في الأبحاث الأنتربولوجية بعد صدور كتابه «الاستشراق»، فبعد أن كانت هذه الأبحاث تركز على البداوة والقبلية والأخذ بالثأر، وتجنح إلى التعميم ووصم العرب بالتخلف، ألفينا ظهور دراسات من نوع جديد حول الثقافات الحديثة والحركات النسائية في الأحياء الفقيرة، وأثر السياسات العالمية في برامج التنمية، وبعد أن كانت الدراسات الأنتربولوجية مرتبطة بالاستعمار والقوى الإمبريالية وجدنا أن بعض الأقسام الإنتربولوجية في الجامعات الأمريكية تتخذ مواقف معارضة للحكومة الأمريكية، وتنتقد سياستها ضد الحرب

على العراق، وقد شجعت مشاركة إدوارد سعيد في المناشط السياسية خارج النطاق الأكاديمي الكثير من الأكاديميين على المشاركة في الحياة العامة حتى إن نفراً منهم نشروا مقالات، ووقعوا على عرائض مطالبين بمحاكمة شارون على أنه مجرم حرب.

لقد كان من الأصوات القليلة التي ارتفعت عالياً داخل أمريكا لإدانة ممارسات إسرائيل العنصرية من قتل واستيطان وتدمير للمنازل وإقامة لمعسكرات الاعتقال، ولم يكف يوماً عن إدانة انتهاكات حقوق الإنسان في بلده الثاني أمريكا، وانتقاد حكامها والتشهير بالخبراء المحترفين وأشباه المثقفين المنتشرين في كل مراكز القرار الأمريكي، ولكنه في الوقت نفسه يلوم المثقفين العرب والجامعات ومراكز صنع القرار العربي لتقصيرها الفادح في معرفة دوافع المجتمع الأمريكي وعجزها عن نسج علاقات متينة مع العديد من القوى والفئات الأمريكية القادرة على تفهم القضايا العربية ومساندتها.

**أيتها الأخوات، أيها الأخوة:**

إن غياب إدوارد سعيد في هذه الفترة العصيبة التي تمر بها الأمة خسارة قومية للوطن العربي وللقضية الفلسطينية التي كان أبرع من حملوا رايتها الحضارية، إنه خسارة قومية لأنه كسب لقضية فلسطين عطف المثقفين في مختلف أنحاء العالم، وهو خسارة إنسانية لأنه استطاع أن يستخلص من القضايا الفردية والقومية معاني إنسانية وأخلاقية يستجيب لها عقل قارئه ووجدانه بصرف النظر عن انتماءاته الشخصية والقومية، إنه خلاصة رمزية لكل إنسان ذي ضمير حي ولكل عقل حر ولكل مضطهد، قدم النموذج الحي، فعاش نقياً وصافياً، ومضى نقياً وصافياً بعد أن حارب القبح العالمي بسلاح العقل والكلمة الحرة والرأي الشجاع. وسنظل نتذكر دفاعه عن القضية العربية والحقوق بقيم الحرية والعقلانية والثقافة الأصيلة وفي شجاعة أدبية متميزة ليبقى الإنسان في مكانه، وما أقسى أن يكون المرء خارج المكان!

ولقد بقي إدوارد سعيد طوال حياته محافظاً على ثوابته الوطنية والقومية والإنسانية، متمسكاً بتراب أرضه وغير مفرّط بالتنازل عن أي جزءٍ منها، وكأنه بمواقفه كافةً يجسد استراتيجية السيّد الرئيس بشار الأسد إذ يقول: «إن تحرير أرضنا المحتلة هو في المقدمة من سلم الأولويات الوطنية، وأهميته بالنسبة لنا توازي أهمية السلام الشامل والعادل الذي اعتمدناه خياراً استراتيجياً،

لكن ليس على حساب أرضنا ولا على حساب سيادتنا، فالأرض والسيادة هما قضية كرامة وطنية وقومية ولا يمكن وغير مسموح لأحد أن يفرط بها أو يمسها، ولقد كنا واضحين في تعاملنا ثابتين في مواقفنا منذ بدء العملية السلمية في مدريد عام ١٩٩١، وذلك بعكس السياسة الإسرائيلية التي اتسمت بالتذبذب حيناً، وبوضع العراقيل أحياناً أخرى، وحتى هذه اللحظة لم يقدموا أي دليل، يجعلنا نثقُ أن لديهم الرغبة الصادقة في إنجاز السلام».

رحم الله إدوارد سعيد الوطني المنسجم مع نفسه، الجريء في قول الحق، العالم الموسوعي الباحث عن الحقيقة والعدالة، الثابت على مواقفه، الإنساني في نظرته، المنفتح على الثقافات الأخرى والذي استحق بكل جدارة صفة المفكر الموسوعي لاهتماماته المتعددة والراسخة والعميقة والجدية في مجالات الفكر والتاريخ الأدبي والانشغال المعرفي بقضايا الأمة العربية وبالأخص قضايا الشعب الفلسطيني والصراع العربي الصهيوني بكل أبعاده المختلفة.

رحم الله إدوارد سعيد الذي أثبت أن الإنسان المفرد الذي لا يملك أسلحة نووية، ولا يملك أموالاً ووجاهات، يستطيع أن يتحدى ويواجه إذا سخر عقله وضميره، ونقّى هذا الضمير من الخوف والطمع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## عمر أبو ريشة
## العضو المراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في منبج عام ١٩١٠ وأتم تعليمه الابتدائي في حلب، ونال الشهادة الثانوية من الجامعة الأمريكية ببيروت، وأرسله والده إلى انكلترا عام ١٩٣٠ ليدرس الكيمياء الصناعية.

عمل مديراً لدار الكتب الوطنية في حلب، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٤٨، وهو عضو الأكاديمية البرازيلية للآداب وعضو المجمع الهندي للثقافة العالمية.

عمل ملحقاً ثقافياً لسورية في جامعة الدول العربية، ثم عين سفيراً في البرازيل ١٩٤٩-١٩٥٣، والأرجنتين وتشيلي ١٩٥٣-١٩٥٤، والهند ١٩٥٤-١٩٥٨، والنمسا ١٩٥٩-١٩٦١، والولايات المتحدة الأمريكية ١٩٦١-١٩٦٣.

له عدة دواوين شعرية منها: شعر- مختارات- غنيت في مأتمي- ديوان عمر أبو ريشة صدر عن دار العودة في بيروت.

له عدة مسرحيات منها: الطوفان- ذي قار

وله ديوان شعر بالإنجليزية.

توفي في الرياض في ١٩٩٠/٦/١٤ ودفن في حلب.

## ندوة الشاعر عمر أبو ريشة
## حلب– دار الكتب الوطنية ١٣–١٥/٧/٢٠٠٤

**أيها الحفل الكريم:**

أحييكم أطيب تحية، وأشكر لكم جزيل الشكر وأعمقه حضوركم أعمال هذه الندوة العربية عن علم من أعلام ثقافتنا العربية هو الشاعر عمر أبو ريشة، وأشكر للباحثين الجهود التي بذلوها في إنجاز أبحاثهم، وأرحب بالأشقاء العرب من الباحثين أجمل ترحيب في بلادهم سورية، بلاد العرب جميعاً، وهي تسهم في صنع مستقبل الأمة عبر مسيرة التطوير والتحديث التي يقودها السيّد الرئيس بشار الأسد راعي الإبداع والعلماء، والثقافة والأدباء، والشكر ممتد إلى مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري على تعاونها الوثيق مع وزارة الثقافة لعقد هذه الندوة على أرض حلب الشهباء.

وكان بدهياً أن تعقد أعمال هذه الندوة في هذه المدينة الخالدة حلب الشهباء ذات البعد الثقافي الممتد الجذور في الأعماق، حلب التي بنى فيها الأمير الحمداني سيف الدولة إمارته الثقافية، وكانت الثغر الذي حمى الأمة ورد عنها هجمات الروم وجحافل جيوشهم الجرارة، حلب أبي فراس الحمداني والكواكبي وسعد الله الجابري، والشاعر الكبير عمر أبي ريشة، حلب التي تمثل بوتقة التآلف والمحبة بين الجنسيات والأديان والأيديولوجيات في إطار من الوحدة الوطنية والنسيج الاجتماعي الموحِّد والموحَّد، حلب المناضلة ضد الاستبداد العثماني والاستعمار الفرنسي والمعتزة بالماضي المجيد لأمتها العربية، حلب التي استقطبت الناس من مختلف الأجناس بسبب دماثة أهلها ونبل أرومتهم وإباء نفوسهم، ألم يقل الشاعر الأخطل الصغير:

نفيت عنك العلا واللطف والأدبا  وإن خلقت لها إن لم تزر حلبا

وفي هذه البيئة الحضارية «حلب الشهباء» نشأ شاعرنا الكبير عمر أبو ريشة، ودرج في ربوعها وليس في قلبه متسع أو فراغ لغير الحب إذ يقول:

الحب أكرمني لم يبق متسعاً  في القلب مني لأحقاد وأضغانِ

فكان أنموذجاً دالاً ومعبراً عن بيئتها المحبة، ومجسداً حياً لقيمها الأصيلة وانتمائها العربي وعمقها الحضاري، وها هو ذا شاعرنا مسكون بالعروبة ماضياً وحاضراً وتوجهاً نحو المستقبل،

تاريخاً وقيماً ومثلاً فإذا ذكر أبو ريشة مثُلت في الذهن مواقف الإباء والعزة القومية والشفافية والصراحة والانتماء الوطني والمحبة الصافية والعواطف النبيلة واعتماد المقاومة والنضال منهجاً للأمة في استرداد حقوقها والذود عن كرامتها، والإدراك العميق لطبيعة العدو الصهيوني وجبلته العنصرية العدوانية، ولئن كان من الصعوبة لا بل من الاستحالة الإلمام بأبعاد شخصية شاعرنا في هذه الكلمة القصيرة العجلى، فإن ثمة بعداً كان جديراً بنا أن نتوقف عنده لدى شاعرنا ألا وهو الانتماء العربي وتعزيز الهوية كيف لا؟ ونحن في ظلال عولمة تروم امحاء الهويات الثقافية وتحول دون التنوع الثقافي، مستخدمة سلاح الهيمنة ومنطق حق القوة لا قوة الحق، وعاملة على تشيئة الإنسان وتسليعه وسيرورة قيم الاستهلاك والمصالح النفعية في منأى عن القيم المعنوية الإنسانية حتى بات شعار عالمنا:

حيّاك من لم تكن ترجو تحيته  لولا المصالح ما حيّاك إنسان

ولقد أدركَ شاعرنا الكبير عمر أبو ريشة، أن العروبة هوية وانتماء ومثل وقيم، فدعا إلى التمسك بالهوية العربية، وأوضح مخاطر الاعتداء عليها، وكان شديد الاعتزاز بماضي أمته العربية، يتغنى بانتصار أمته في معركة ذي قار، كما يزدهي ببطولات رجالاتها الأفذاذ عبر التاريخ من أمثال خالد بن الوليد وسيف الدولة الحمداني، والمعتصم وصلاح الدين الأيوبي، الذين شكلوا منارات على طريق النضال الطويل، وها هي ذي السلسة تستمر في حياة العرب مجدداً على أيدي الزعيم الوطني المجاهد إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري حيث يتغنى شاعرنا بمواقف البطولة التي جسداها في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، ولكم كان يفتخر بالمجد الذي خلّفه العرب في مسيرة الحضارة الإنسانية فلنستمع إليه يقول على لسان فتاة أندلسية:

قلت يا حسناءُ من أنت؟ ومن  أي دوح أفرع الغصن وطالا؟
فأجابت: أنا من أندلس  جنة الدنيا سهولا وجبالا
وجدودي ألمح الدهر على  ذكرهم يطوي جناحيه جلالا
بوركت صحراؤهم كم زخرت  بالمروءات رياحاً ورمالا
حملوا الشرق سناءً وسنى  وتخطوا ملعب الغرب نضالا
فنما المجد على آثارهم  وتحّدى بعد مازالوا الزولا

هــؤلاء الصــيد قــومي فانتســب إن تجـد أكـرم مـن قـومي رجـالا

ولكم كان الألم يعتصر قلب شاعرنا وهو يقارن بين حالي أمته ماضياً وحاضراً:

أمــتي كــم صــنم مجدتــه لم يكــن يحمــل طهــر الصــنم

أتلقــاك وطــرفي مطــرق خجــلاً مــن أمســك المنصــرم

وها هو ذا يقف أمام أوغاريت أول أبجدية في التاريخ ليتساءَل:

مــالي أراك كنيبــة النظــرات لم تتكلمــي

هــذا الــذهول يــنم عــن ذاك الجــوى المتكــتم

وتكــاد تســأل مــن أنــا ويكــاد يخــذُلني فمــي

أنــا يابنــة الأمجــاد مثلــك واقــف في مــأتم

أنــا مــن بقايــا أمــة هــي والعــلا مــن تــوأم

مــرت علــى الــدنيا مــرور القطــر في الحقــل الظمــي

فتناقلــت آيــات رحمتهــا شــفاه الأنجــم

ويفتش الشاعر عن هؤلاء الرجال الذين سطروا مجد الأمة بنضالهم على الرغم من مرارة العيش وقساوة الحياة، في حين أن رجال الحاضر تهيأ لهم ما لم يتهيأ للأقدمين من طراوة العيش ونعيم الدنيا، ولكنهم لم يحافظوا على مجد الأمة شموخاً وإباءً وعزة وسناءً، فها هو ذا يقول:

ربّ طوّقــت مغانينــا جمــالاً وجــلالا

ونثــرت الطيــب فــيهن يمينــاً وشِمــالا

ربّ هــذي جنــة الــدنيا عبــيراً وظــلالا

كيــف نمشــي في رباهــا الخضــر تيهــاً واختيــالا

وجــراح الــذل نخفيهــا عــن الــذل احتيــالا

ردّهــا قفــراء إن شــئت وموّجهــا رمــالا

نحــن نهواهــا علــى الجــدب إذا أعطــت رجــالا

ولقد هزت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ أعماق الشاعر، فإذا هو يصرخ عالياً:

ألإســـــرائيل تعلـــــو رايـــــة  في حمـــــى المهـــــد وظـــــلّ الحـــــرم؟

ويصبّ جام غضبه على الحكام آنذاك الذين حمَّلهم مسؤولية ضياعِ مجدِ الأمة وهزائمِها واستقدامِ الاستعمار والاستيطانِ الصهيوني إذ يقول:

لا يـــلام الـــذئب في عدوانـــه  إن يـــكُ الراعـــي عـــدوَّ الغـــنم

كما يقول:

لـــيس بـــدعاً إذا تعـــالى وضـــيع  واســـتباح الحمـــى الحـــرام إبـــاحي

**أيها الحفل الكريم:**

ما أشبه اليوم بالبارحة: في القرن الرابع الهجري تجزأت الأمة العربية إلى دويلات وممالك وسيطرت غاشية الجمود والاستسلام والضعة والهوان، وهذا ما عبر عنه شاعرنا الكبير أبو الطيب المتنبي إذ يقول:

في كـــل أرض وطئتهـــا أمـــم  ترعـــى بعبـــدٍ كأنهـــا غـــنم

وبات القابض على عروبته وانتمائه العربي كالقابض على الجمر، وهذا ما عبر عنه المتنبي أيضاً عندما يقول:

ولكـنَّ الفـتى العـربي فيهـا غريـب  الوجـــــه واليـــــد واللســـــان

وبقيت إمارة حلب بقيادة أميرها سيف الدولة الحمداني معتزة بانتمائها العربي وبالدفاع عن الأمة العربية أمام جحافل الروم، كما هي عليه حال سورية في أيامنا هذه، حيث هرول الكثيرون للارتماء في أحضان الأعداء دون خجل أو حياء، أو ذرة من انتماء، ولكن سورية وبقيادتها الحكيمة أعلن قائدها السيّد الرئيس بشار الأسد على الملأ أمام جحافل الأمريكان والعالم كله أن لا تفريط بذرة تراب واحدة من الأرض العربية ولا مساومة على حقوق الأمة، ولا سلام إلا السلام الشامل والعادل الذي يرد الحقوق إلى أصحابها، ويحافظ على كرامة الأمة وعزتها، ولا سبيل إلا الاستجابةُ للشرعية الدولية وقرارات مجلس الأمن الراميةِ إلى إقامة دولة فلسطين الحرة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وعودةِ اللاجئين إلى ديارهم، وانسحابِ إسرائيل من الأراضي المحتلة في فلسطين والجولان والجزء المتبقي من جنوب لبنان، ولا رجوعَ عن الموقف العربي الأصيل الذي وقفته سورية ماضياً وتقفه حالياً ومستقبلاً تجاه زوال الاحتلال عن

العراق والحرصِ على وحدة أرضه وشعبه وامتلاك مقدراته بنفسه.

**أيها الحفل الكريم:**

عندما رأى الشاعر عمر أبو ريشة اضطراب المعايير رفع صوته قائلاً:

أصبح السفح ملعباً للنسور فاغضَبي يا ذرا الجبال وثوري

ترى ماذا عساه أن يقول في وقتنا الحالي الذي لم تضطرب فيه المعايير فحسب، وإنما اختلطت فيه الأوراق، وانقلبت فيه المفاهيم، فأضحى الاحتلال مشروعاً بشريعة الأقوياء، وبات فيه الدفاع عن الحمى والذود عن الوطن إرهاباً، وغدا مجرم الحرب شارون الذي لم يعرف التاريخ له مثيلاً في وحشيته وإجرامه رجل سلام في نظر «بوش» حاكم أمريكا أقوى دولة في هذا العالم.

بيد أن لدى شاعرنا قناعات، وهو على حق في قناعاته، وتتمثل في أن المقاومة هي السبيل الوحيد لصون الحمى والذودِ عن الديار وردّ كيد الصهاينة الأشرار فها هو ذا يقول:

محمد لم يهادن طغمة عرفت باللؤم والغدر من أزمان أزمانِ

فيم ارتضوها على ضيم ومسكنة وفاوضوها على زور وبهتان؟

وهذا ما يذكرنا بقول شاعرنا القديم:

تبينت أن الحق إن لم تتح له بواسل يخشى ظلمها فهو باطل

لعمرك لو أغنى عن الحق أنه هو الحق ما قام الرسول يقاتل

فطريق الشهادة هو الضمان لحياة الأمة كما يرى أبو ريشة ورؤيته هي الحق، إذ يقول:

حبذا الموت إن رأيت على موتي حياة لأمتي وبلادي

وإذا ما كان ثمة كبوة في مسيرة النضال فهذا لا يحول دون استئناف مسيرة النضال لأنها هي الطريق الأمضى في الحفاظ على مجد الوطن وكرامة الأمة، فلنستمع إليه يقول:

ليس عاراً إن في النضال كبونا إنما العار في اجتناب النضال

ويرى أيضاً أن الحق لا يموت مهما يحاول المغتصبون التستر عليه والحؤول دون رده، وتفننوا في أساليب التعذيب والاستغلال:

لا يموت الحق مهما لطمت عارضيه قبضة المغتصب

وأن أولي النفوس الحرة الكريمة لا يمكن أن يرضخوا للاستبداد، ولا أن يستسلموا للمذلة والهوان، وهل يمكننا أن ننسى إشارته إلى البلبل في القفص الذي رفض أن ينسِل على الرغم من كل الطيبات التي وفروها له، ولكنه أبى ذلك كله، وأبى أن يورث الأفراخ ذل القيد من بعده:

فعاف دنياه ولم يتخذ عُشاً ولم يحمل سوى زهده

أبى عليه الكبر أن يورث الأفراخَ ذل القيد من بعده

**أيها الحفل الكريم:**

لقد استأثر عمر أبو ريشة باهتمام عدد كبير من الباحثين، وكتب عنه الكثير، ومن الدراسات الجادة التي تناولت عالمه دراسة الدكتور عمر الدقاق في «الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث» والدكتور سامي كيالي في «الأدب العربي المعاصر في سورية» والدكتور سامي الدهان في «الشعراء الأعلام في سورية» و«حركة الشعر العربي الحديث من خلال أعلامه في سورية» لأحمد بسام ساعي.

ولقد صدرت بعض الدراسات التي تناولت شاعرنا في مؤلفات نقدية وفي المجلات والدوريات الثقافية، كما صدر بعضها الثاني في الصحف، ومن بين الدراسات الجادة أيضاً «عمر أبو ريشة شاعر الجمال والقتال» لإيليا حاوي عام ١٩٧٢، و«الصورة الفنية في شعر عمر أبي ريشة» لمحمد حمامي عام ١٩٨٤، و«عمر أبو ريشة دراسة في شعره ومسرحياته» لمحمد إسماعيل دندي عام ١٩٨٨.

ولئن كان شاعرنا المبدع محط أنظار عدد من الباحثين والمؤلفين والنقاد، إلا أنه مازال في أمس الحاجة إلى أن يدرس من زوايا أخر، وأن يتم تناول أطيافه المتنوعة وأبعاده المتعددة، وهذا ما نأمُلُه من ندوتنا، وجميل جداً أن تسلط الأضواء على المناحي الفكرية والوجدانية لعظماء الأمة الذين يمثلون رموز إبداعها وسرّ خلودها وأن تقرأ هذه المناحي قراءات جديدة.

وأخيراً أتوجه بالشكر الجزيل إلى مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري على تعاونها مع وزارة الثقافة لإقامة هذه الندوة، ولرئيسها فضيلة السيّد عبد العزيز سعود البابطين على إسهاماته الثقافية المتنوعة وخدمته لأمته العربية وقضاياها الثقافية.

أكرر الشكر الجزيل للباحثين الذين أعدوا أبحاثهم وللمشاركين في أعمال هذه الندوة

ولمحافظة حلب ومديرية الثقافة فيها ولكل من عمل ويعمل على إنجاح هذه الندوة كل الشكر والتقدير، وفقنا الله جميعاً لما فيه خير أمتنا وتقدمها وارتقاؤها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## الدكتور عبد الله عبد الدايم

## العضو المراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في حلب عام ١٩٢٤، ونال الإجازة في الآداب (قسم الفلسفة) من جامعة فؤاد الأول بالقاهرة عام ١٩٤٦ ودكتوراه الدولة في التربية من جامعة السوربون عام ١٩٥٦. يجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية. عمل بعد تخرجه أستاذاً للفلسفة في ثانويات دمشق وحمص، ومدرساً وأستاذاً في كلية التربية بجامعة دمشق عام ١٩٤٨، ورئيساً لقسم أصول التربية فيها، ومديراً عاماً لمعارف حكومة قطر عام ١٩٥٧، ووزيراً للإعلام عام ١٩٦٢ و١٩٦٤، ووزيراً للتربية عام ١٩٦٦، وأستاذاً للتخطيط التربوي في مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية ببيروت، وأستاذاً للتربية في الجامعة اللبنانية عام ١٩٧٢، وخبيراً في التخطيط التربوي في المركز الديموغرافي بالقاهرة التابع للأمم المتحدة عام ١٩٧١، ومديراً لمشروع اليونسكو لتطوير التربية في سلطنة عمان عام ١٩٧٥، وممثلاً لليونسكو ورئيساً لبعثتها في دول غرب إفريقيا عام ١٩٧٨. من مؤلفاته التخطيط التربوي: أصوله وأساليبه الفنية وتطبيقاته في البلاد العربية– التربية التجريبية والبحث التربوي– التربية عبر التاريخ– الثورة التكنولوجية في التربية العربية– العربية والعمل العربي المشترك– التربية وتنمية الإنسان في الوطن العربي– نحو فلسفة تربوية عربية– مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية– استراتيجية الطفولة المبكرة– دروب القومية العربية– القومية والإنسانية– الاشتراكية والديمقراطية– الجيل العربي الجديد– التخطيط الاشتراكي– القومية العربية والنظام العالمي الجديد– إسرائيل وهويتها الممزقة.

له مؤلفات بالفرنسية، وانتخبه مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق عضواً مراسلاً في المجمع عام ١٩٩٢، وتوفي عام ٢٠٠٩ ودفن في دمشق.

## الحفل التكريمي
## للأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدايم
## في مكتبة الأسد بتاريخ الأحد ٢٠٠٤/٥/٢٣

**أيها الحفل الكريم:**

أحييكم أطيب تحية، وأتوجه بالشكر الجزيل إلى اتحاد الكتاب العرب ممثلاً برئيسه الصديق الدكتور علي عقلة عرسان على مبادرته الكريمة لإقامة هذا الحفل التكريمي لعلم من أعلام الفكر والثقافة في بلادنا، والذي نعتز بفكره النيّر الصُراح، ذلكم هو الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدايم.

يرجع عهدي بالدكتور عبد الدايم إلى عام ثلاثة وستين وتسعمائة وألف، وكنت آنئذ طالباً في دبلوم التأهيل التربوي في كلية التربية بجامعة دمشق، وكان كتاب «الجامع في التربية العامة» للمفكر الفرنسي «رونيه أوبير» مقرراً على طلبة الدبلوم، وقد قام الدكتور عبد الدايم بترجمته إلى العربية. ولم يكن المترجِم في ذلك العام يدرّس في الجامعة، وإنما كان الكتاب الذي ترجمه مقرراً على الطلبة.

ولقد هويتُ مترجم الكتاب بالسمع قبل لقائه، كما استهوتني ترجمته المتميزة، إذ إن له أسلوباً مستقلاً بأدواته ديباجة وتلويناً، وألفاظه أنيقة ومصطفاة وفصيحة، وأسلوبه شائق وممتع.

وكانت لديّ رغبة عارمة لأن أتعرّف المترجم شخصياً، وشاءت الظروف أن ألتقيه أول مرة عام ستة وستين وتسعمائة وألف، وكان آنذاك وزيراً للتربية، وأحببت أن أستشيره في تسجيل موضوع لرسالة الماجستير في التربية، فخصص لي من وقته الثمين آنذاك ما يقرب من نصف ساعة شعرت وقتها بسعادة غامرة، إذ قابلني بابتسامته العذبة، ووجّه إليّ مجموعة من الأسئلة حول الموضوع المراد تسجيله، واستمعت إلى نصائحه القيمة، وأرشدني إلى الاطلاع على كتب ومراجع لم يكن لي عهدٌ بها.

وتتابعت السنون، وكان اسم الدكتور عبد الدايم كبيراً على النطاق القومي، يستشهد بآرائه التربوية، ويلجأ إليه للإفادة من خبرته، فها هو ذا يتنقل بين أقطار الوطن العربي ليرسي معالم نهضة تربوية في أغلب دول الخليج، وكان من الرواد الأوائل في إسباغ الطابع العربي على

المناهج التربوية سياسةً وتخطيطاً وتنفيذاً ومتابعةً وتقويماً، الأمر الذي أزعج أعداء الأمة، فراحوا يشحنون صدور بعض المسؤولين في الخليج ضد ذلك النفر المؤمن بوحدة أمته العربية ورسالتها الخالدة، ذلك النفر الذي حوّل الهتاف الصباحي في المدارس إلى: تحيا الأمة العربية.

لقد آمن بالقومية العربية انطلاقاً من قيمها: قيم الحق والخير والجمال، وانطلاقاً من إنسانيتها ومن عراقتها وأصالتها، ودعا إلى وحدة أمته العربية، فجاهر بالحقيقة وما دارى، وصدع بالنصيحة وما حابى.

وتعددت اللقاءات مع الدكتور عبد الدايم في المؤتمرات التربوية التي كانت تعقد في الوطن العربي وفي اليونسكو، وطالما كنا نتبادل الرأي في القضايا التربوية عامة وفي ميدان بحوثها بصورة خاصة.

وصلتي بالدكتور عبد الدايم توطدت عندما عملتُ مديراً لقطاع التربية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الألكسو» بتونس بين الأعوام من ١٩٩٢ حتى ١٩٩٦. وكانت المنظمة آنذاك في صدد مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية في ضوء المتغيرات العالمية، فكلّفتْ منذ عام ١٩٨٩ مجموعة من كبار التربويين العرب لإجراء عملية المراجعة لتلك الاستراتيجية التي تمّ وضعها في نهاية السبعينيات. وقمتُ بمتابعة الموضوع وعقدِ الاجتماعات لهؤلاء المكلفين، وتم عقدُها في مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية بعمان، وفي معهد الدراسات العربية في القاهرة، وفي مقر المنظمة بتونس، إلا أن العمل كان يسير متثاقلاً ومتباطئاً بصورة تدعو إلى الاحتراق النفسي والتمزق والقلق والأرق، إذ كنا في المنظمة مضطرين إلى إنجاز المشروعات في أوقاتها، وكانت ثمة مساءَلة أمام المجلس التنفيذي والمؤتمر العام للمنظمة للمشرفين على تنفيذ هذه المشروعات. وكانت معاناة وأي معاناة في متابعة المكلفين إنجاز العمل ورجائهم الإسراع في التنفيذ، ولكنني عبثاً حاولت وسُدى باءت جهودي، ولكم رددت قول أبي الطيب المتنبي:

«واحـــرَّ قلبـــاه ممـــن قلبُـــه شَـــبِمُ»

وفكرت ملياً أنّى لي الخلاص من هذه المعاناة المرة؟ فهداني تفكيري إلى أن أسند العمل بكليته إلى الأستاذ الدكتور عبد الدايم، لعلَ وعسى ينقذ من هذه الأزمة التي كان أمدها قد امتد

حوالي أربع سنوات، وحاول بعضهم نصحي بالعدول عن فكرتي، ولكنني ظللت مصراً على رأيي، وعندما قيل لي: هناك عدة مشرفين على محاور مراجعة الاستراتيجية وعدة باحثين، فهل يمكن للدكتور عبد الدايم أن يحل محل هؤلاء جميعاً في وضع تقرير المراجعة؟ فقلت: نرجو والمرءُ لا يحيا بغير رجاء.

وتم تكليفه، فأنجز العمل في الموعد المحدد له وكسبت الرهان. ولكم كانت سعادتي كبيرة بإنجاز هذا العمل الذي قدمته أمام المجلس التنفيذي للمنظمة قائلاً بعد أن شرحت ظروف المراجعة: من نعم الله علينا أن هيّأ لنا هذا النطاسي التربوي الكبير لإجراء العملية، فأنجز وحده هذا العمل الرائد الذي تعتز به المنظمة، فكان وفياً بوعده، مخلصاً في إنجاز عمله، مجلياً في أدائه، فله من المنظمة وأمته العربية أسمى آيات الشكر والتقدير.

وكان ثمة مشروع آخر وضع في ضوء مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية يتعلق بالطفولة المبكرة، وعملت المنظمة على تنفيذ هذا المشروع بالتنسيق مع برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائي، فأشرفتُ على تنفيذه وكلفت عدداً من الباحثين من المغرب وتونس ومصر وسورية والأردن والكويت وفلسطين والعراق كتابة بحوثهم في ضوء المحاور التي تمّ اعتمادها؛ وكان لابدّ بعد إنجاز البحوث من وضع تقرير عن هذه الاستراتيجية، فلجأت مجدداً إلى الدكتور عبد الدايم، وكان كعادته وفياً بوعده، متقناً لعمله، مخلصاً في أدائه، فظهرت أول استراتيجية على النطاق القومي خاصة بالطفولة المبكرة.

**أيها الحفل الكريم:**

يبدو أنه لكل امرئٍ من دهره ما تعود، فلقد تعوّد الأستاذ عبد الدايم على التفوق والتميز منذ أيام دراسته، إذ إن الإجازة في الآداب التي حازها من جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٦ كانت بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى، وشهادة الدكتوراه من جامعة السوربون كانت بتقدير مشرف جداً عام ١٩٥٦. وما الجوائز والأوسمة التي حصل عليها بعد ذلك إلا أمارة على استمرارية تفوقه في ميادين الفكر والثقافة.

ولئن كان قد تسلّم مناصب وزارية متعددة، ومواقع قيادية متقدمة، فإن هذه الأعمال الإدارية لم تكن لتثنيه عن البحث المستمر والتأليف المتميز في مجالات التربية والثقافة والفكر

القومي.

وهو في تناوله للتربية عالج بالإضافة إلى استراتيجياتها أغلب عناصر منظومتها فلسفةً وتخطيطاً تربوياً وواقعاً واتجاهات، كما أنه تناول تاريخها عبر العصور.

وهو في مؤلفاته القومية والفكرية معتز بتراث أمته الحضاري، ومعزز الروابط القومية التي تجمع بين أبناء الأمة العربية الواحدة، وفي رأيه أن ما أصاب العرب في وقتنا الحاضر من محن ونكبات مرده إلى انحسار المد القومي، وها هو ذا يدعو إلى ثقافة عربية ذاتية تواجه المخاطر والتحديات التي تتعرض لها الأمة مبيناً دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، تعيد إلى هذا العالم وجهه الإنساني في ظلال عولمة متغطرسة، انتفت منها القيم الإنسانية، وينطبق عليها قول شاعرنا العربي:

| | |
|---|---|
| جبّارة لا عطف في أقدارها | عجلى وما خلق الزمان عجولا |
| يُمنى تعد لك المتاع وأختُها | تلد الشقاء وتخلُقُ التنكيلا |
| لا عطف يَخْفُقُ في الصدور ولا هوىً | كذبتك عينُك بل رأيتَ طلولا |
| والعلمُ ويلَ العلم يوم حسابِه | إن كان عن نزواتها مسؤولا |

وهو في بعض من مؤلفاته يبين طبيعة الكيان الإسرائيلي، مسلطاً الأضواء على نكبة فلسطين، وأساليب الصهاينة في الهيمنة على العالم، وتمزيق الكيان العربي وطمس هوية الأمة عبر مشروعات عنصرية استيطانية عدوانية وممارسات إجرامية، لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وداعياً إلى الحوار بين الثقافات، مبرزاً دور العرب في اعتماد أساليب الحوار واحترام الرأي الآخر عبر مسيرتهم إغناءً للحضارة الإنسانية.

**أيتها السيدات، أيها السادة:**

إن عبد الدايم من جيل المكابدة، فلقد كان الصرح العلمي الذي بناه معجوناً بالمعاناة، وما أجملها من معاناة! لأنها ترتقي بصاحبها في دروب وعرة إلى ذرا التفوق والألق والإبداع.

ورحم الله شاعرنا بدوي الجبل إذ يقول:

| | |
|---|---|
| ينـدرُ المجد والدروب إلى المجد | صعابٌ ويكثر التزوير |
| علموا أنه عسيرٌ فهابوه | ولا بدعَ فالنفيسُ عسيرُ |

ولقد جرَّ عليه تفوقه في بحوثه العلمية حسدَ نفرٍ لم يتمكنوا من مجاراته، ولله درّ المتنبي إذ يقول:

إني وإن لمـــــــت حاســـــــديَّ فمـــــا أنكـــــر أني عقوبـــــةٌ لَهُـــــمُ

وإذا كنا لنعتز بمخزون مكرّمنا الفكري وسعة اطلاعه وتمكنه من اللغتين الفرنسية والإنجليزية فلا يمكننا أن ننسى، إتقانه للغته القومية واعتزازه بها واستشهاده بروائعها وحكم حكمائها شعراً كان ذلك أو نثراً، وهذا ما نفتقده لدى أغلب خبراء أيامنا، ولم نتمكن في هذه العجالة من إيفاء مكَّرمنا حقه فمعذرةً منك أيها الصديق العزيز، أيها العلم المحتفى به.

واعـــذر إذا لم أوفِ فكـــرك حقَّـــه لجـــج الخضـــمّ طغـــت علـــى الســـبّاح

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## الدكتور إحسان عباس

## العضو المراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في قرية عين غزال في حيفا سنة ١٩٢٠، وفيها نال الشهادة الابتدائية، ثم حصل على الإعدادية في صفد، ثم التحق بالكلية العربية في القدس، وبعد أن تخرج فيها عمل في التدريس، والتحق بجامعة القاهرة عام ١٩٤٨، حيث نال الإجازة في الأدب العربي ثم الماجستير عام ١٩٥٢، فالدكتوراه عام ١٩٥٤.

ألّف ما يزيد على خمسة وعشرين مؤلفاً في النقد الأدبي والسيرة والتاريخ، وحقق ما يزيد على اثنين وخمسين كتاباً من أمهات كتب التراث، وترجم اثني عشر كتاباً.

توفي في عمان في ١ آب عام ٢٠٠٣.

**كلمة وزير الثقافة في الحفل التكريمي**
**للأستاذ الدكتور إحسان عباس**
**المركز الثقافي بمخيم اليرموك– دمشق**
**٢٦ تموز ٢٠٠٥**

**أيها الحفل الكريم:**

أحييكم أطيب تحية باسمي وباسم وزارة الثقافة السورية، شاكراً لكم جزيل الشكر وأعمقه أيها الحضور الكريم إقامتكم هذا الحفل التكريمي لعَلَمٍ من أعلام الثقافة العربية، ألا وهو المرحوم الأستاذ الدكتور إحسان عباس، عميد النقد العربي، والموسوعي الذي جمع في شخصه ثقافة متعددة الأطياف والأبعاد، فهو الباحث والمؤرخ والناقد والمحقق والمترجم والشاعر، حتى إن أحدنا ليقف مدهوشاً أمام ما صنعه في مسيرة حياته متسائلاً: ترى هل يمكن لإنسان واحد أن ينجز هذا الإنجاز الضخم في مسيرة حياة واحدة؟

الأستاذ الدكتور إحسان عباس اسم كبير على نطاق الساحة القومية، وقامة من القامات الشامخة في ثقافتنا العربية، طالما تردد اسمه على ألسنة أساتذتنا في مطلع الستينيات من القرن الماضي، وكنا آنذاك على مقاعد الدراسة في مدرجات قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق. ولكم كان يستشهد بأقواله وآرائه، وطالما عدنا إلى أمهات الكتب في تراثنا الادبي العربي التي حققها، وكم له من الأيادي البيض على الأجيال التي نهلت رحيق المعرفة من هذه الكتب المتعددة والمتنوعة التي قام بتحقيقها «نفح الطيب للمقري في ثمانية مجلدات، وفيات الأعيان لابن خلكان في ثمانية مجلدات، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام في ثمانية مجلدات، رسائل ابن حزم في أربعة مجلدات، فوات الوفيات في خمسة أجزاء» إضافة إلى عشرين كتاباً في مجلدات، أو كتب منفردة أبصرت النور بعد تحقيقها على يديه.

ومن يلقِ نظرة على الدواوين الشعرية التي أغنى بها المكتبة العربية يدرك أيما إدراك مدى ما كان يمتلكه المرحوم من كتابات متميزة في مجال الدراسة والتحقيق في ميدان الأدب، ولا يمكننا أن ننسى تحقيقه لديوان الصنوبري، وديوان الخوارج، وكثيّر عزة، وديوان الرصافي البلنسي، وديوان ابن حمديس الصقلي، وديوان ابن ربيعة العامري...الخ.

ولئن كان مجلياً في ميدان التحقيق، فقد كان مجلياً أيضاً في ميادين أخر جال فيها، إذ إن تمكنه من اللغات الأجنبية جعله متميزاً في الترجمة حتى إنه بزّ وهو المتخصص في النقد العربي من يحملون شهادات التخصص في اللسانيات الإنجليزية. ومن الكتب التي ترجمها فن الشعر لأرسطو، والنقد الأدبي ومدارسه الحديثة لهايمن، وفلسفة الحضارة ودراسات في حضارة الإسلام للسير هاملتون، ويقظة العرب لجورج انطونيوس...الخ.

كما كان مجلياً في دراسة التراث العربي وإحيائه، إذ إنه سلَّط الأضواء على الأدب الكلاسيكي في العصر العباسي والأندلسي من أمثال أبي حيان التوحيدي، والشريف الرضي، وأبي العلاء المعري، وابن حمديس، وابن حزم...الخ.

ولم يقتصر في دراساته على التراث الأدبي القديم، وإنما تناول بالدراسة اتجاهات الشعر العربي المعاصر، كما تناول بالتحليل نفراً من أعلام الأدب المعاصر من أمثال بدر شاكر السيّاب، وكمال ناصر، وإبراهيم طوقان...الخ.

ولئن كان شيخ النقاد العرب المعاصرين قد تناول في دراساته الأدب والنقد قديماً وحديثاً فإن دراساته شملت أقاليم الوطن العربي في بلاد الشام والعراق ومصر وشبه الجزيرة العربية والأندلس وفي المهاجر الأمريكية.

وحظي تاريخ الأدب العربي بنصيب من بحوثه ودراساته، إذ إنه تناول بالدراسة تاريخ الأدب الأندلسي، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب، والعرب في صقلية إضافة إلى عمله مؤرخاً في الوقت نفسه، حيث تناول إلى جانب تاريخ العرب في صقلية تاريخ دولة الأنباط، وتاريخ ليبيا، وتاريخ بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري...الخ.

ولكم كان مبدعاً في فن السيرة الذاتية كما تجلى ذلك في «غربة الراعي»! وكان لفن السيرة موقع متميز في دراساته النقدية على مستوى الرؤية والممارسة، وليس من قبيل المصادفة أن يبدأ حياته بالكتابة عن أبي حيان التوحيدي، وأن ترافقه سيرة أبي حيان النقدية في أطوارها المتعددة، وأن يجد في الاقتراب من سيرة أبي حيان وابن حمديس الصقلي تجسيداً لما كان يعانيه من غربة وشقاء وتهميش وحزن ومرارة إثر نكبة فلسطين وتشرد الأهل وفقد الديار، ألم يقل شاعرنا العربي:

وفي كـــل عـــين يلـــوح الأســـى ولكـــن لمـــن ذاق طعـــم الأســـى

ومعذرة من الشاعر إذا استبدلنا «الأسى» بـ «الهوى» وكلاهما مزلزل للكيان النفسي لصاحبه.

**أيتها السيدات، أيها السادة:**

لقد كان الدكتور إحسان عباس همزة الوصل بين التراث والحداثة، عالج موضوعات النقد العربي القديم: النظم والمعنى، والطبع والصنعة، والمفاضلة والموازنة، والسرقات الشعرية وعمود الشعر، وعرض لأعلام النقد العربي القديم من أمثال قدامة بن جعفر، والآمدي، وابن قتيبة، والجرجاني، وابن طباطبا، وابن خلدون..الخ.

ولم يُعن بالنقد القديم فقط، وإنما عني بالنقد الحديث أيضاً، إذ إنه اهتم بهموم القصيدة العربية الحديثة، وقارن بينها وبين القصيدة الأوروبية، فجاءت دراساته عن السيّاب والبياتي في ضوء الاتجاهات النقدية المعاصرة.

وفي دراسته عن مظاهر التجديد في الأدب الأندلسي يرى أنها تتمثل في ابتكار الموشح، إذ إنه يرى أن الموشح لا يمثل عند الأندلسيين مراوحة في النغمات أو محض هرب من شكل القصيدة، إنما هو في نظره يمثل خصائص كثيرة في الطبيعة الأندلسية ذاتها:

يمثل التطور الموسيقي، والروح الشعبية، والقدرة على التقفز. وفي هذه الناحية الأخيرة يقول إحسان عباس «أقارنه بالأعمدة الدقيقة في قصر الحمراء التي تحمل جسداً عمرانياً ضخماً حتى ليخيل لمن يراها لأول وهلة أنها لا تلبث أن تنهار، ولهذا فإنك لو قارنت بين الموشح الأندلسي والمشرقي وجدت الثاني عملاً سطحياً آلياً فاقداً للحرارة الفنية التي تجدها في الموشح الأندلسي».

ويرى أن من مظاهر التجديد أيضاً الأزجال الأندلسية، وهي تجديد محلي إقليمي، ولا يقتصر التجديد على الموشحات والأزجال، وإنما يجاوزه إلى السيرة الذاتية، فأنت لا تجد في الحب والسيرة الذاتية أدباً يفوق «طوق الحمامة» لابن حزم، ولن تجد في علم الأديان المقارن مثل ابن حزم، ولن تجد في المؤرخين أناساً كثيرين بدرجة ابن حيان ولسان الدين بن الخطيب...الخ.

**أيتها الأخوات، أيها الأخوة:**

لقد اتسم عميد النقد العربي الدكتور إحسان عباس بتأملاته الفلسفية العميقة في اثناء تحليله للفنون الأدبية التي تناولها وبخاصة في مجال النقد، كما تميز بفن السيرة الذاتية، إذ كان مبدعاً في إضافته للتراث العربي هذا الفن، إلى جانب كتاب «الأيام» لطه حسين، و«عبقريات العقاد» و«جبران» لميخائيل نعيمة، و«حياتي» لأحمد أمين...الخ.

واتسم تحقيقه للتراث بمبدأ راسخ في نفسه وهو «المعرفة قبل الحكم» فابتعد عن التعميمات الكاسحة، وقبول الأشياء قبول مسلمات. وكان التقييم الذي اعتمده يقوم على ركيزتين أولاهما معرفة الدور الصحيح للأمة العربية في التاريخ الحضاري وثانيتهما المواءمة لروح العصر، فلنستمع إليه يقول: «درست ما أبداه العرب في النقد الأدبي من خلال الرؤية العصرية فوجدت أنهم قاموا بدور كبير جداً لا يقل عن دور أي أمة أخرى، ولولا هذه الرؤية للتراث ظل النظر إلى دورهم في الفكر النقدي إما اتهامات جائرة أو تفريطات مرتجلة. وكل دراسة في نظري لابد أن تكون كشفاً جديداً، ومادام الأمر كذلك فلا كشف يتحقق على أصول علمية دون إحياء التراث. أما رفض التراث انقياداً لنزوة قلقة أو نزعة منحرفة، فإنه لا يخطر ببالي، ولا أستطيع تصوره لأنه ينم عن تنكر للإنسان وجهوده على هذه الأرض».

ولا يمكننا أن ننسى في هذه الكلمة العجلى اهتمام أديبنا الراحل بأدب الأطفال والذي يتأتى في نظره من إحساسه بمهمة الفن والنقد معاً، ويعده جزءاً مكملاً لما قام به من نشاط في ميدان النقد والدرس، منطلقه هو أن ما يقدم للطفل من أدب يجب أن يكون حائزاً السمات الفنية التي نتطلبها في الأدب عامة، لا فرق من الناحية الفنية بين أدب الكبار وأدب الصغار، إنما الفرق في المستوى الفكري، ويقول في هذا الصدد:

«أنا مع زملاء لي في دار الفتى العربي نعمل على هذا الأساس: نقيّم القصة، ونطلب إلى الكاتب أحياناً إدخال بعض التعديلات عليها، نجري النظر فيها عدة مرات، وعندما تدق على الآلة الكاتبة آخر مرة نعرضها على سيكولوجي متخصص في تربية الأطفال لمعرفة المستوى الذي تلائمه تلك القصة من حيث السن».

**أيتها الأخوات، أيها الأخوة:**

لئن كان أديبنا الراحل قد أغنى المكتبة العربية بمؤلفات متنوعة الأبعاد والاتجاهات بسبب

ثقافته الغنية التي تأتت من إتقانه اللغة القومية فإن إتقانه لعدد من اللغات الأجنبية ومنها الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية واللاتينية قد زاد ثقافته غنىً واتساعاً.

ولم يقتصر نشاطه على إغناء المكتبة العربية بعدد كبير من أمهات الكتب تأليفاً وترجمة وتحقيقاً، وإنما جاوز ذلك إلى رفد بعض الجامعات العربية بكوكبة من الأطر البشرية التي تتلمذت على يديه في الدراسات العليا، فكان نعم المشرف والموجه والناصح.

وإن هذا الإنتاج الغزير من الدراسات والبحوث التي أنجزها الدكتور إحسان عباس إنما يدل دلالة كبيرة على قوة الإرادة التي كان يتحلى بها من جهة، وعلى استثماره للوقت أحسن استثمار من جهة أخرى، وعلى تجشمه المركب الصعب من جهة ثالثة، انطلاقاً من إيمانه أن:

دروب العلا للسالكين عديدة وأقربها للغاية الموحش الوعرُ

وما كان المجد الذي بناه رحمه الله إلا نتيجة لحجم المعاناة المرة والهمة العالية ومواجهة التحديات بقوة لا تعرف الفتور، وعزيمة لا تعرف الكلل، ورحم الله الشاعر بدوي الجبل إذ يقول:

يندر المجد والدروب إلى المجد صعابٌ ويكثر التزويرُ

علموا أنه عسير فهابوه ولا بدعَ فالنفيسُ عسيرُ

والواقع «النفيس عسير»، إذ إن أديبنا الكبير لم يتهيب صعود الجبال، ولم تثنه الجراح النازفة من جسم وطنه وأمته عن الدراسة والبحث والتنقيب في تراث الأمة القديم والمعاصر، فجاء نتاجه متنوعاً في أغراضه، غنياً في مضمونه، واسعاً في امتداداته. وأنّى لي أو لأي متحدث عن إحسان عباس أن يفيه حقه، أو أن يقف على قطرة من إنتاجه الفكري الواسع والغزير والذي تجاوز التسعين كتاباً؟

فمعذرة أيها العميد الراحل، أيها العالم الجليل بكل ما تحمل كلمة عالم من معنى علماً وخلقاً ومعرفة وقيماً، أيها الموسوعي المتواضع في شموخه والشامخ في تواضعه والقمة الشاهقة في أدبنا، إذا كنا لم نتمكن من إيفائك حقك:

واعذرْ إذا لم أوفِ فكرك حقّه لجج الخضمّ طغت على السبّاح

أكرر الشكر الجزيل لكم أيها الحاضرون لالتفاتة الوفاء للأديب الراحل الأستاذ إحسان عباس.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد)
## العضو المراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في قرية ديفة في محافظة اللاذقية عام ١٩٠٠، ولقب «بدوي الجبل» أطلقه عليه السيد يوسف العيسى صاحب جريدة ألف باء الدمشقية. تتلمذ على يدي والده العلاّمة الشيخ سليمان الأحمد، وقد وجهه منذ الصغر إلى قراءة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ونهج البلاغة والشعر العربي.

عمل في الحقل السياسي، فانتخب نائباً في البرلمان السوري عام ١٩٣٧، وأعيد انتخابه عدة مرات، تولى عدة وزارات منها الصحة والدعاية والأنباء.

وهو العضو المراسل في المجمع العلمي العربي بدمشق. صدرت أعماله الكاملة عام ١٩٧٩ عن دار العودة بلبنان، وقد تعددت أغراض الشعر عنده، فله شعر في الحب والمرأة والجمال، وشعر في الوطنية والكفاح والمراثي والحنين.

غادر سورية عام ١٩٥٦ متنقلاً بين لبنان وتركيا وتونس قبل أن يستقر في سويسرا وعاد إلى سوريا عام ١٩٦٢، وتوفي في ١٩ آب عام ١٩٨١.

## كلمة وزير الثقافة في ندوة الشاعر بدوي الجبل
## التي أقيمت بدار الأسد للثقافة والفنون بدمشق
## بتاريخ ٢٠٠٥/٨/١٦

**أيها الحفل الكريم:**

أحييكم أطيب تحية، وأرحب بكم أجمل ترحيب في رحاب دار الأسد للثقافة والفنون حيث تعقد هذه الندوة التكريمية لشاعر كبير من المبدعين في أمتنا في الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله، إنه شاعر العربية والعروبة محمد سليمان الأحمد «بدوي الجبل».

وأتوجه بالشكر إلى الباحثين الذين أنجزوا بحوثهم بغية المشاركة في أعمال هذه الندوة، مرحباً بالأشقاء العرب من الباحثين والشعراء في بلادهم سورية، بلاد العرب جميعاً، وقلعة الكرامة العربية والشرف العربي في زمن اليباس القومي وفي وقت غدا فيه القابض على ثوابته القومية وعزة أمته كالقابض على الجمر.

والشكر الجزيل ممتد إلى مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري على تعاونها الوثيق مع وزارة الثقافة السورية لعقد هذه الندوة في دمشق الأصالة والحضارة والتاريخ العريق. ولقد عودتنا هذه المؤسسة الرائدة «مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري» على استجابتها لدعم كل إبداع شعري، حيث تمثل دعمها العام الماضي في ندوة الشاعر عمر أبي ريشة، وها هي ذي تدعَمُ هذا العام ندوة الشاعر بدوي الجبل، فلها أسمى آيات الشكر والتقدير.

**أيتها الأخوات، أيها الأخوة:**

إن المبدعين في الأمة هم طلائعها ومشاعلها، وهم الضمير الواعي الحي في المجتمع، والسند الصلب لقيم الحق والخير والجمال. ولقد رعى السيّد الرئيس بشار الأسد المبدعين في مختلف مجالات الحياة، ومنح بعضهم وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، تقديراً من سيادته لِفكرهم الإبداعية، وثمرات عقولهم النيرّة، ودورهم الفعال في صيانة ثقافتنا الوطنية، وثوابتنا القومية، وتحصين ذاتيتنا الثقافية، وإغناء خصوصيتها بكل ما هو خيّر وجميل ورائع.

ويعد الشاعر بدوي الجبل قامة إبداعية شامخة، ولا يمكنني في هذه الكلمة العجلى أن

أحيط بأبعاد شخصيته المتعددة الأطياف، المتنوعة المرامي، الغنية بالرؤى والتطلعات، والمتمرسة بالملمات، والصافية كالغدير في منأى عن أي ضغينة أو كراهية، وهو القائل:

يشـــهد الله مـــا بقلـــبي حقـــدٌ  شـــفَّ قلـــبي كمـــا يشُـــفُّ الغـــديرُ

هذه الشخصية التي تحمل بين جوانحها نفساً أبية، ترفض المذلة والهوان، وقد عبّر الشاعر عن هذه النفسية في قوله:

ونفسـي لـو أن الجمـر مسَّ إباءَهـا  علـى بشـرها الريّـان لاحـترق الجمـرُ

ولما كان ثمة استحالة في الوقوف على جميع وجوه شخصية مكرَّمنا رحمه الله، كانت لنا وقفة على إيمانه بالمحبة ديدناً له وشعاراً وسلوكاً وممارسة، وعلى إيمانه بالحرية حرية الفكر والتعبير مبدأ ومنطلقاً إلى الحياة العزيزة الكريمة، وعلى انتمائه القومي، وتعلقه بالشام قبلة له ومحجاً، وأخيراً على بعضٍ من حكمه وتفاؤله بانتصار الشعب وبقاء الأمة.

لقد فتح الشاعر عينيه على المحبة:

فتحتُ عيني على حبٍّ صفا وزكا  فصـــنتُهُ لضـــياء العـــين إنســـانا

وآمن أن في الحب الخير والجمال، وأن ثمة تلازماً لا انفصام فيه بين الحب والنور:

وآمنـــت أن الحـــب خـــيرٌ ونعمـــةٌ  ولا خـــيرَ عنـــدي في وغـــىً وحـــروبِ

وآمنـــت أن الحـــب والنـــور واحـــد  ويكفـــر بـــاللألاء كـــلُّ مريـــب

وأكد أن بناء الأمم إنما يقوم على المحبة، وشتان بين المحبة والحقد، بين الجنة والنار:

ومـا بُنيـتْ إلا علـى الحـبّ أمـةٌ  ومـــا عـــزَّ إلا بالحنـــان زعـــيمُ

ولا فـــوق نعمـــاءِ المحبـــةِ جنـــةٌ  ولا فـــوقَ أحقـــادِ النفـــوسِ جحـــيمُ

ويـا ربّ قلـبي مـا علمـتَ محبـةٌ  وعطـرٌ ووهـجٌ مـن سـناك صـميمُ

ولئن كان يجمع بين المحبة والحنان فما ذلك إلا انسجامٌ مع طبيعته وجبلته القائمة على كليهما:

طبعـيَ الحـبُّ والحنـانُ فمـا أعـرف  للمجـــد غـــيرَ حـــبي طريقـــا

لا أريـــدُ الإنســـانَ إلا رحيمـــاً  بـــاختلافِ الهـــوى وإلا شـــفيقا

ومـا أروع ذلـك التعـاطفَ وتلـك المشـاركةَ الوجدانيـة الـتي يبـديها الشـاعر تجـاه المعـذبين

والمتألمين! وما أسماه من حب ينتظم العالم بأسره! وهل ثمة أبلغ من قوله:

وأنا الذي وَسِعَ الهمومَ حنانُه ... وبكى لكل معذّب ملتاح
أشقى لمن حمل الشقاء كأنما ... أتراحُ كلِّ أخي هوىً أتراحي
وودت حين هوى جناحُ حمامةٍ ... لو حلَّقتْ من خافقي بجناح
حبٌ قد انتظم الوجودَ بأسره ... أسد الشرى وحمامةَ الأدواح

وهذا ما يذكرنا بمنهجية الحب لدى الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الذي وسع حبه الوجود بأسره.

**أيها الحفل الكريم:**

لئن كان الحب منطلقاً له ومنهجاً في حياته فإن الحرية هي الأخرى منطلق وغاية وهدف، فيرى أن:

سبةَ الدهرِ أن يحاسبَ فِكْرٌ ... في هواه وأن يُغَلَّ لسانُ

ولقد شارك المتنبي في رؤيته أن الرأي قبل شجاعة الشجعان، وأن الفكر يجيء في أولوية الأولويات لإصلاح الأمور، فها هو ذا يرى أن:

الكون في أسراره وكنوزه ... للفكر لا للوغىً ولا لسلاحِ

وأنه:

لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها ... إلا بفكر كالشعاع صُراح

وأن الفكر هو الذي يضيء الدروب، ويملأ الكون سناءً إذ يقول:

إذا ملكوا الدنيا على الحرّ عنوةً ... ففي نفسه دنيا هي العزُّ والكبرُ
وإن حجبوا عن عينه الكون ضاحكاً ... أضاء له كونٌ بعيدٌ هو الفكرُ

ومن هنا كان احترامه للفكر والرأي الصراح، وكانت ثورته على الطغاة المستبدين، واصماً إياهم بالجبناء:

والظلمُ من طبع الجبانِ ... وكلُّ طاغيةٍ جبانُ

كما يرى أن الضحى والشجاع حلفا كفاح، وأنه ما احتمى بالظلام إلا الجبان، وأن النصر للشعوب لا للطغاة لأن الشعب هو القوي، أما الطاغية المستبد فهو الضعيف:

كل طاغٍ-مهما استبدَّ- ضعيفٌ  كل شعبٍ- مهما استكان- قديرُ
وهب الله بعضَ أسمائه  للشعب، فهو القديرُ وهو الغفورُ

وهذا ما يذكرنا بمقولة القائد الخالد حافظ الأسد: قوتان لا تقهران: قوة الله وقوة الشعب.

لقد آمن بقوة الشعب. ومن هنا كانت دعوته للحكام إلى أن يرجعوا إلى شعوبهم مصارحة ومحبة وتحناناً:

ارجعوا للشعوب يا حاكميها  لن يفيد التهويل والتغريرُ
صارحوها فقد تبدَّلت الدنيا  وجدَّت بعد الأمور أمورُ

وتنطلق رؤيته من أن الفرد لا يمكن أن يستمر، ولا يمكن أن يبقى، أما الشعب فهو المستمر، وهو الباقي إلى جانب الحق والدهر:

أرى الفرد لا يبقى وإن طال حكمه  ويبقى بقاء الحق والزمن الشعبُ

**أيتها الأخوات، أيها الأخوة:**

مع إيمان شاعرنا بقوة الرأي وقوة الحق:

وما أكبرت نفسي سوى الحق قوة  وإن كان في الدنيا لها النهي والأمر

إلا أنه يدعو في الوقت نفسه إلى أن يكون المرء قوياً حتى يصون حقه، ذلك لأن الحياة للأقوياء، فينادي أحبته:

أحبابنا لا تضعُفوا فالضعف داعية الفناء
وتعلموا أن الحياة وصفوها للأقوياء

وأن شريعة القوة هي المسيطرة على ممر الدهور وتوالي العصور، ويظل الأقوياء مرهوبي الجانب:

هذي الحياة لمن مضى كالليث مرهوبَ الجوائح

كما يرى من خلال الاستقراء لمسيرة البشر عبر التاريخ أن شريعة الحياة هي إلى جانب القوي لا الضعيف:

ضلّ الذي زعم الأنام  عن القديم تقدَّموا
الناسُ في كل العصور  كما علمت هُمُ هُمُ

يشـــقى الضـــعيف ويســـتبد بـــــه الكمـــــيُّ المعلـــــم
وتحلّـــل الأطمـــاع مـــا تختـــاره وتحـــرّم

وما كانت الحياة إلا مطواعاً للأقوياء، مادام للقوة الأمر والنهي:

الشـــرع مـــا ســـنَّ القـــويُ بســـيفه فلســـــيفه التحـــــريم والتحليـــــلُ

**أيها الحفل الكريم:**

إذا ما انتقلنا إلى الانتماء القومي لدى شاعرنا فإننا نجد أنه قد آمن بالعروبة انطلاقاً من إيمانه بالحق والخير والجمال، وهو القائل «من أراد العروبة إيماناً في قلبه وفناءً في حبه، وأنساً في وحشته، وهناءة في سريرته، وعالماً في وحدته، فليتقرب إلى نعمتها بالحق والخير والجمال» على حدّ تعبيره.

وأشاد بالدور الذي اضطلع به المسيحيون في خدمة الفصحى لغة القرآن الكريم والموحدة بين العرب، فوقفوا إلى جانبها في محنتها، وحافظوا عليها في الأديرة، وكان ثمة تعاضد وتكاتف بين الأذان والناقوس في تعزيز روابط الوحدة الوطنية وحماية اللغة العربية إذ يقول:

صـانت مسـوحُكُم الفصـحى وكـان لهـا مـــنكم بمحنتهـــا الأركـــان والعمـــد
مَـــرَّت بـــأديرة الرهبـــان يغمُرُهـــا شـــوق البنـــين وحـــبٌّ مـــترَفٌ رَغِـــدُ
لم يخـــذلوا لغـــة القـــرآن أمَّهُـــمُ وكيـــف يخـــذل قـــربى كفّـــه العضـــدُ
تعانقـــت مـــريمٌ فيـــه وآمنـــة وحـــنَّ للرَّشـــد الإيمـــان والرَّشـــدُ

وندّد الشاعر بالمؤامرات التي تعرضت لها العربية الفصيحة، وما كانت لتتعرض لها إلا لأنها عامل توحيد بين العرب، وأفضل أم برة بهم، وأب حان عليهم، وما أجمل إيمانه بانتصار الفصيحة على المؤامرات التي تحاك ضدَّها:

للضـــاد ترجـــع أنســـاب مفرَّقـــة فالضـــــاد أفضـــــل أمٍّ بـــــرَّةٍ وأبِ
تفـنى العصـور وتبقـى الضـاد خالـدةً شـــجىً بحلـــقِ غريـــبِ الـــدارِ مغتصـــبِ

ولئن أشار شاعرنا إلى الروابط القومية التي توحد بين العرب متمثلة في اللغة فإنه لم يغفل الإشارة إلى التاريخ معتزاً بالمناقب الرفيعة للفتوحات العربية ومستذكراً المقولة المشهورة: لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب، فلنستمع إليه يقول عن العربي:

أريحـــي تكـــاد تـــورق بـــالنعمى لأعدائـــه القنـــا والنصـــول

ولقد تغنى شاعرنا بالأرض العربية إلى جانب تغنيه بالفصيحة والتاريخ مؤكداً أن سالف الشرق، مِلك قحطان وأن اليوم لقحطان، وأن له الغد المأمول، ويتابع قائلاً:

ولـــه هـــذه الجبـــال المنيفـــات وتلـــك الـــرُّبى وهـــذي الســـهول

ثم يعدّد بعض المناطق العربية معتزاً بهويتها:

أرز لبنـــان أيكـــة في ذرانـــا والفراتـــان ماؤنـــا والنيـــل

ورياحيننـــا علـــى تـــونسَ الخضـــراءِ خضـــراءُ أيـــن منهـــا الـــذبول؟

ومع تنوع المناطق العربية وأقاليمها يبقى بيت العروبة قبلة الشاعر:

بيـــتُ العروبـــة حـــين أســـجُدُ لا طـــورُه قصـــدي ولا عرفاتُـــه

مـــن بعـــض أسمـــاءِ العروبـــة أرزُه يـــوم الفخـــار ونيلُـــهُ وفراتُـــه

كـــالروض ملتـــفَّ الخمائـــل ناضـــراً مـــا ضـــرّه لـــو نُوّعـــتْ أزهـــارُهُ

ولكم كانت تسوءه رؤية الحدود الفاصلة بين الأقطار العربية انطلاقاً من إيمانه أن الأرض العربية هي أرض الوطن العربي الواحد الموحد. ومن هنا كان دعاؤه الحار بأن يهدِمَ الله هذه الحدود المصطنعة:

لـــيس بـــين العـــراق والشـــام حـــدٌّ هَـــدَم الله مـــا بَنَـــوا مـــن حـــدود

ويرى أن الأرض العربية على امتدادها واتساعها إنما هي وطنه الذي به يعتز:

كـــل الربـــوع ربـــوعِ العـــرب لي وطـــنٌ مـــا بـــين مبتعِـــدٍ منهـــا ومقـــترِبِ

ولذلك كان يرى أن الخلاف بين الأشقاء العرب مدعاة للغرابة والاستنكار:

للخلـــف في النـــاس أنـــواع وأغربهـــا خلـــف الشـــقيقين مـــن قـــومي بـــلا ســـبب

وأن الأمر الطبيعي هو الاتحاد بين الأشقاء، أما الأمر المستكره فهو الشقاق:

لبنـــان والغوطـــة الخضـــراء ضـــمهما مـــا شـــئت مـــن أدب عـــال ومـــن نســـب

مـا في اتحادهمـا تـالله مـن عجـب هـذا الفـراق لعمـري منتهـى العجـب!

وما أشبه اليوم بالبارحة، لقد عتب على لبنان تصرف بعض بنيه في الخمسينيات تجاه سورية وإظهارهم العداء لها، وها هو ذا قلبه يتمزق أسىً من مثل هذه التصرفات المعادية فيقول:

ضـاق لبنـان بي وكـان رحيبـاً وتنـزّى حقـداً وكـان رفيقـا
مـا للبنـان رحـت أسـقيه حـبي وسـقاني مـرارةً وعقوقـا
قـد أرادوا لبنـان سـفحاً ذلـيلاً وأردنـاه شـامخاً مرموقـا

ويبين الشاعر أن الشام لم ولن تحمل بين جوانحها إلا الحب الصافي للبنان، وأن هذا الحب كبير وواسع يسمو فوق الجراح، ولا يشوبه مَنٌّ ولا أذى.

وما أسمى تعبيره عن هذا الموقف المبدئي الثابت الذي وقفته وتقفه سوريا تجاه أهلنا في لبنان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً !

عروبـة الشـام يـا لبنـان صـافية سمحـاءُ كـالنور لا مكـرٌ ولا عقـد
تنـزّه الحـب عـن مَـنٍّ وعـن نكـدٍ وقـد يـنغِّص حسـن النعمـة النكـدُ
نحـن المحبـين نهـواكم ونـؤثركم هـل كـان مـن دلّلـوا القـربى كمـن وأدوا
نحـن الظمـاءَ ونسـقي الحـب أرزكـم الحـب في الشـام لا نـزرٌ ولا ثَمَـدُ

لقد ندّد الشاعر بالأعمال التي قام بها الاستعمار الفرنسي في سورية، ومن منا ينسى تلك القصيدة الرائعة التي نظمها الشاعر في تبيان أساليب المستعمرين الفرنسيين وأعمالهم إبان احتلالهم لسورية والتي مطلعها:

يـا سـامر الحـيّ هـل تغنيـك شـكوانا رقَّ الحديـد ومـا رقّـوا لبلوانـا

ومما يقوله فيها:

سمعـتُ بـاريس تشـكو زهـو فاتحهـا هـلاّ تـذكرت يـا بـاريس شـكوانا
عشـرين عامـاً شـربنا الكـأس مترعـةً مـن الأذى فتملَّـي صِـرْفَها الآنـا

وتغنى الشاعر بشهداء الوطن وبرموز الثورة السورية ضد الفرنسيين وبرجالات الحركة الوطنية من أمثال سلطان باشا الأطرش، وإبراهيم هنانو، وسعد الله الجابري، وشكري القوتلي، وفارس الخوري...الخ.

وحمل شاعرنا الهم القومي في فلسطين، فعبّر أيما تعبير عن ذلك الجرح النازف من جسم الأمة، وأبان مأساة اللاجئين الفلسطينيين تحت الخيام قائلاً:

الخيـــــــام الممزقـــــــات وأم ... في الزوايـــــا وكســـــرة وحصـــــيرُ
وفتـــاةٌ أذلهـــا العـــري والجـــوع ... ويلهـــو بالرمـــل طفـــل صـــغيرُ
كلمـــــا أنَّ في الخيـــــام شــــريدٌ ... خجِـــل القصــــرُ والفِــــراش الـــوثيرُ

كما صوّر الأعمال الإجرامية التي يقوم بها العدو الصهيوني في فلسطين المحتلة من حيث الحرق والإبادة والتدمير:

يحـــرُقُ المــدن والعـــذارى ســـبايا ... وصـــــــغيرٌ لذبحـــــه وكبـــــيرُ
دينـــه الحـــرق والإبـــادة والحقـــد ... وشـــــتمُ الأعـــــراض والتشـــــهيرُ
صـــوّرته التـــوراة بالفتـــك والتـــدمير ... حــــــتى لَيَفْـــــزَعَ التصـــــويرُ

وثمة حقيقة يراها في التلازم بين مجد العروبة ومجد الشام، فإذا اعترى مجد العروبة في الشام خطر فالخطر كل الخطر على العرب كافة:

إذا ظـل مجـد العـرب في الشـام سـالماً ... فمجـدُ بـني قحطـان في الشـرق سـالمُ

ومن هنا كان تعلّق الشاعر بالشام وتقديره لمكانتها وموقعها على الساحة العربية، وحنينه الدائم لها إذ إنها قبلته، وإن الله عزّ وجل يغفر له إن صلى والشام قبلته فيقول:

ويــا ربّ إن صــليت والشــام قِبلــتي ... فأنـــت غفـــور للـــذنوب رحـــيم
تهلَّـــل عفـــو الله للـــذنب عنـــدما ... أطـــلَّ عليـــه الـــذنب وهـــو وســـيمُ

وجميل جداً قوله:

تطـــوّحني الأســـفار شـــرقاً ومغربـــاً ... ولكـــــنّ قلـــــبي بالشـــــآم مقـــــيم

وما أرقه من قول:

لقـــد زعمـــوا أني بجلّـــق هـــائمٌ ... أجـــلْ، والهـــوى إني بجلّـــق هـــائمُ

ولكم كان يحن إلى الشام في غربته فيناديها:

يـــا شـــام يـــا لـــدة الخلـــود ... وضـــــمَّ مجـــــدكما انتســـــابُ
مـــن لي بنـــزر مـــن ثـــراك ... وقـــــــد ألحَّ بي اغـــــــترابُ

فأشمـــــه وكأنـــــه لَعَــــس النواهـــــــــد والمــــــــــلابُ

وأضــــمُّه فـــترى الجـــواهر كيــــف يكتنـــز الـــتراب

هــــذا الأديم شمائـــل غـــرٌّ وأحــــــلام عــــــذابُ

هــــذا الأديم أبي وأمــــي والبدايــــــة والمــــــآب

ووســـائدي وقلائـــدي ودمـــى الطفولـــة والســـحاب

أغلـــى علـــيَّ مـــن النجـــوم ولا أُلام ولا أُعــــــــاب

**أيها الحفل الكريم:**

إذا كان شاعرنا المبدع يتسم برقة المشاعر ونبل الأحاسيس وسمو القيم وروعة البيان فإن الحكمة تزين تلك السمات كافة، والحكمة هي أصفى رحيق يقطّره عقل الإنسان، ومن حكمه:

قـد تطـول الأعمـار لا مجـد فيهـا ويضـــم الأمجـــاد يـــوم قصـــيرُ

ويرى أن المجد الحقيقي هو الذي يبنى على المكابدة والمعاناة والمشقة والصعوبات:

لصـغار النفـوس كانـت صـغيراتُ الأمـــاني وللخطـــير الخطـــيرُ

ينـدر المجـد والـدروب إلى المجـد صـــعابٌ ويكثـــر التزويـــر

علمـــوا أنـــه عســـير فهـــابوه ولا بــــدع فـــالنفيسُ عســـيرُ

كما يقول:

قـــل لمـــن يحســـد العظـــيم ترفـــقْ إن خلـــفَ الأمجـــاد همـــاً وسُـــهدا

وما أروع حكمته في الدعوة إلى القوة والتضامن:

فقـــل لضـــعيفٍ راح يســـأل رحمـــة رويـــدك مـــا للضـــعف في النـــاس راحـــمُ

وقـل للـذي جـافى علـى القـرب أهلَـه رويـــدك تقـــوى بـــالخوافي القـــوادمُ

وما أعمق حكمته في بث التفاؤل في نفوس أبناء الأمة عندما يشير إلى أن المحتلين والغزاة لا محالة زائلون:

ســـألوني عـــن الغـــزاة فجاوبـــتُ ريـــاح هبّـــت ونحـــن ثبـــيرُ

ســـألوني عـــن الغـــزاة فجاوبـــتُ رمالـــلٌ تُســـفى ونحـــن الصـــخورُ

سـألوني عـن الغـزاة فجاوبـتُ ليـالٍ تمضـي ونحـن الـدهور!

**أيتها الأخوات، أيها الأخوة:**

لقد اتسم شعر البدوي بالخلود، لأنه كان الناطق بلسان التاريخ والعالم، باتجاه إنساني انطلاقاً من إيمانه أن وظيفة الشعر تتمثل في الدفاع عن إنسانية الإنسان في هذا العالم، وأن الذين حملوا مشاعل المثل الإنسانية اندلعت شعلاتهم من وهج التفكير والشعور انسجاماً مع الرغبة الدائمة للتعبير بطريقة تغني قيم الخير والجمال، وتوضح الحقيقة تخليداً للأبعاد الروحية والعاطفية وصولاً إلى خلود العبقرية الإنسانية.

فالـدهر مِلْـكُ العبقريـة وحـدها لا مِلـكَ جبّـار ولا سـفّاح

ومعذرة منك أيها الشاعر الكبير إذا كنت لم أتمكن من إيفائك بعض حقك، ولتسمح لنا أن نستعير من دررك هذا البيت لنستشهد به على تقصيرنا تجاه الإحاطة بفكرك:

واعـذْر إذا لم أوف مجـدك حقـه لجـج الخضـم طغـت علـى السـبّاح

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

# الباب الثاني

# في

# مواقف رثاء

## محتويات الباب الثاني


١- كلمة رثاء الأستاذ الراحل أمجد الطرابلسي

مجمع اللغة العربية بدمشق- آذار ٢٠٠١

٢- كلمة بمناسبة رحيل الأستاذ الدكتور عبد الوهاب حومد

مكتبة الأسد بدمشق- آذار ٢٠٠٢

٣- كلمة بمناسبة رحيل الأستاذ نعيم الرفاعي

كلية التربية بجامعة دمشق نيسان ٢٠٠٣

٤- كلمة في الحفل التأبيني للأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي

مكتبة الأسد بدمشق –تشرين الثاني ٢٠٠٨

٥- كلمة في الحفل التأبيني للمرحوم الأديب والمربي والمترجم وجيه الأسعد

مكتبة الأسد بدمشق – شباط ٢٠٠٩

٦- كلمة في الحفل التأبيني للأستاذ الدكتور فاخر عاقل

قاعة رضا سعيد للمؤتمرات بجامعة دمشق- آذار ٢٠١٠

٧- كلمة في الحفل التأبيني للأستاذ الدكتور زهير البابا

كلية الصيدلة بجامعة دمشق

٨- كلمة في الحفل التأبيني للأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر

قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بدمشق يوم الأربعاء ٢٠١١/١٢/١٤

## كلمة رثاء الأستاذ الراحل أمجد الطرابلسي

## ٢٠٠١/٣/١٤

## بسم الله الرحمن الرحيم

**أيها الحفل الكريم**

إذا كان عضو مجمع اللغة العربية الراحل الشاعر المرحوم بدوي الجبل يقول:

ورود الربـا بعـد الربيـع بعيـدة ويـدينك منهـا في قـواريره العطـر

فإنّ السيرة العطرة لأستاذنا الراحل أمجد الطرابلسي تبقى قريبة إلى النفوس، متجذرة في أعماق العقول والقلوب، لأنها زاخرة بكل القيم الخيرة والسمات الإيجابية النيّرة.

ولئن كان جثمانه قد دفن في أرض بعيدة فإنه مقيم في وطنه ما أقام قاسيون. وستبقى ذكراه العطرة تملأ النفوس بأريجها الفواح وشذاها المنعش، لا بل إن أي قارورة عطر مهما تكن نوعية عطرها لا يمكن أن تصل إلى روعة عطر السمعة المعنوية التي تعطي لصاحبها عمراً ثانياً ومجداً خالداً ذلك لأن الكلمة لا تموت، إنها في البدء كانت وستبقى ويبقى الذكر للإنسان عمراً ثانياً.

ألا ليت من تستهويهم الدنيا بمغرياتها يعتبرون ويتفكرون ليدركوا أن العطر المعنوي للإنسان إنما هو أسمى شيء في هذا الوجود، وأنّ الحرص عليه نزوعاً وسوكاً وأداءً، إنّما يقي صاحبه من الانحراف والزلل، ويمنحه مكانة لا تعادلها كنوز الأول.

يرجع عهدي بأستاذنا الراحل إلى عام ثمانية وخمسين وتسع مائة وألف، وهو عام خالد في نفوسنا، عام قيام الوحدة المباركة بين سورية ومصر، عام تحقيق حلمنا العربي في قيام أول وحدة عربية في تاريخنا المعاصر، في ذلك العام كنت قد حصلت على الشهادة الثانوية العامة، وتقدّمت إلى مسابقة بغية إيفاد عدد من المبعوثين إلى الاتحاد السوفييتي آنذاك للتخصص في الأدب الروسي، وكنت في عداد الناجحين وقد أرسلوا ثلاثة، وكان ترتيبي الرابع بين الناجحين، فلم يكن لي حظ في الإيفاد فتوجهت إلى وزير التربية والتعليم في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي الذي استقبلني – رحمه الله – في مكتبه بالوزارة

أحسن استقبال لم يكن يحلم به شاب في الثامنة عشرة من عمره، شرحت له وضعي، وأصغى إليّ بكل جوارحه، فأشار علي أن أسجل في جامعة دمشق، وأكمل دراستي الجامعية وتابع قائلاً «إن المستقبل أمامكم أيها الشباب». ولما ذكرت له أن حالتي المادية لا تساعدني على الدوام في الجامعة، قال لي: إنّ بإمكانك أن تسجل في كلية الآداب والدوام فيها غير إجباري وإن الثقافة تنبع من الداخل، فما عليك إلا أن تقرأ كثيراً وتبحث في المراجع وأمهات الكتب معتمداً على نفسك، وأن تمحو هذه السحابة من الحزن والكآبة من مخيلتك فالتشاؤم يمثل نظرة قاصرة لا أريد لها أن تقودك في سديم الحياة، وستكون بمشيئة الله من المتفوقين.

وبعد مضي أربع سنوات من دراستي الجامعية وجمعي بين الوظيفة والدراسة حصلت على الإجازة في اللغة العربية وآدابها بتفوق.

وأعلنت وزارة التربية عن بعثة للحصول على الماجستير في البلاغة العربية القديمة، ثم الدكتوراه في النقد باسم جامعة دمشق، وكانت الجامعة آنذاك ما تزال بإشراف وزارة التربية لعدم افتتاح وزارة التعليم العالي بعد، والتي تم افتتاحها بعد قيام ثورة آذار المجيدة، ثم رعاها ورعى العلماء فيها وفي أخواتها من الجامعات السورية قائد الحركة التصحيحية المباركة الرئيس الخالد حافظ الأسد.

وتشاء الظروف أن تعلن نتيجة المسابقة وأن أكون الناجح الأول والأصيل فيها، وكان ذلك حلماً بالنسبة إلي أن أكمل دراساتي العليا ببعثة دراسية، وأن أحصل على الماجستير في البلاغة العربية القديمة ثم الدكتوراه في النقد باسم جامعة دمشق وبعد أن تسلمت قرار الإيفاد وهيأت نفسي للسفر، ألغيت البعثة وعندما قابلت وزير التربية آنذاك وكان قد تسلم الوزارة عدد من الوزراء بعد أستاذنا الراحل، كان جواب الوزير الجديد:

– إنّنا لسنا بحاجة إلى بعثات أدبية ولا في العلوم الإنسانية، إننا بحاجة إلى بعثات في العلوم البحتة والتطبيقية.

وعبثاً حاولت الدفاع عن وجهة نظري وأنّ هذين النمطين من الدراسة ليسا متناقضين أو متعارضين وإنما متكاملان ويكونان حلقة واحدة يدور فيها الوجود الإنساني عقلاً وروحاً، حساً

ووجداناً، واقعاً وذاتاً.

كما دافعت عن حقي في إكمال دراساتي العليا نتيجة لتفوقي، وأنّ الدرجات التي حصلت عليها إنما هي نتيجة لجهودي وسهري الليالي، إلا أن الجهود في إقناعه وثنيه عن وجهة نظره باءت كلها بالإخفاق.

فتذكرت لقائي أستاذنا الراحل أمجد الطرابلسي وحدبه عليّ ونصائحه القيمة وأسلوبه التربوي وتواضعه تذكرت كيف:

حملت يتمي وحلمي وارتميت هنا  على ذراعيه كان الأهل والوطنا

وقارنت بين الرجال إذ ليس كل الرجال يدعى رجالاً، قارنت بين عقليتين إحداهما تبني الوطن في ضوء نظرة استشرافية شمولية واسعة، والثانية تهدم في ضوء نظرة متزمتة ضيقة، إحداهما تربوية تشجع القدرات والمواهب وتعززها، وتحوط أصحابها بالرعاية والمحبة والثناء، فتزيد من تقديرهم لذاتهم وتفتح أمامهم أبواب النجاح، والثانية تحبط القدرات وتعمل على وأدها.

وآليت أن أكمل دراساتي العليا معتمداً على الذات ومتخطياً الصعاب، ومتسلحاً بإرادة قوية، متخذاً من كلمات الوزير الراحل الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي صوى تهديني في طريقي الصعب والشاق والطويل.

كيف يمكنني أن أنسى مواقفك التربوية يا أستاذنا الراحل وأنت تدعوني إلى التعلم الذاتي وإلى التفاؤل في الحياة؟! وستبقى كلماتك الخالدة محفورة في العقل والوجدان مادمت على قيد الحياة وستبقى سيرتك حياة لا نفاد لها.

موت النقيّ حياة لا نفاد لها  قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

– ولقد مررت بجامعة محمد الخامس في المغرب عام خمسة وسبعين وتسع مائة وألف، وكنت في ذلك العام أدرّس في جامعة وهران بالجزائر، وأحببت أن أزور جامعة محمد الخامس في الرباط وتمت لي زيارتها صيف ذلك العام، وكنت أطير شوقاً لرؤية أستاذنا الذي كان يدرّس في تلك الجامعة، ولسوء حظي لم ألقه بسبب وجوده خارج المغرب في ذلك الحين، واجتمعت بنفر من طلاب الجامعة وبعد أن عرفوا أنني من سورية، بادروني بالسؤال:

- هل تعرف الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي؟

فأجبتهم قائلاً:

ومن منا لا يعرف الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي، إنّه علم من أعلام الفكر ورجالات الثقافة على الساحة القومية، إنه عالم فاضل تعتز به الأمة.

ولكم أحسست بالافتخار عندما تحدثوا بإسهاب عن علمك الغزير وثقافتك الواسعة ومناقبيّتك الرائعة، وأنّ لهم الشرف في التتلمذ على يديك الكريمتين أيها الراحل الكبير، يا من كنت الوجه المشرّف والمشرق لبلادك في كل مكان تحل فيه. حملت وطنك في أعماق وجدانك وجسدته في سلوكك وإنجازك، إخلاصاً في العمل وتفانياً في أدائه وحرصاً على كل القيم الوطنية النبيلة والمثل العليا الرفيعة، فكنت الممثل الحق لوطنك انتماءً أصيلاً وعلماً غزيراً وخلقاً كريماً.

رحمك الله رحمة واسعة بقدر ما أعطيته لأمتك من مجد ثقافي ومعنوي تعتز به الأجيال وأشهد أن ما أعطيته كبير وكبير. ومن حقك علينا – وهذا أضعف الإيمان – أن نسعى إلى تسمية إحدى المدارس في دمشق باسمك أو أحد المدرجات الجامعية في كلية الآداب تقديراً لفضلك ووفاءً من عارفي قدرك وترسيخاً لسيرتك العطرة في الأجيال المتعاقبة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## الدكتور عبد الوهاب حومد

## العضو العامل في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في حلب عام ١٩١٣، ودرس في المكتب السلطاني الذي كان الثانوية الوحيدة في المدينة، وحصل منها على شهادة دار المعلمين عام ١٩٣٣، والشهادة الثانوية الأولى عام ١٩٣٤، والثانية عام ١٩٣٦ (شعبة الفلسفة). وأوفد إلى جامعة باريس في فرنسا بعد أن نجح في مسابقة أجريت عام ١٩٣٨، وحصل على الشهادات التالية:

١- ليسانس في الآداب العربية عام ١٩٤٠

٢- دبلوم معهد العلوم الجماعية عام ١٩٤٠

٣- ليسانس في الحقوق عام ١٩٤١

٤- دبلوم الدراسات العليا في العلوم الجنائية عام ١٩٤٢

٥- الدكتوراه في الحقوق عام ١٩٤٤

وبعد عودته من الإيفاد عمل مدرساً للأدب العربي في ثانوية حلب ودار المعلمين فيها عام ١٩٤٦، ومن ثمّ عمل مدرساً في كلية الحقوق عام ١٩٤٦، فأستاذاً مساعداً فأستاذاً. وبعد وقوع الانفصال بين سورية ومصر عام ١٩٦١ غادر الجامعة ليمارس المحاماة، ثم تعاقد مع جامعة الرباط فدرّس فيها خلال المدة الواقعة بين ١٩٦٤ و١٩٦٨، ثم انتقل إلى جامعة الكويت، فدرّس فيها بين ١٩٦٨ و١٩٨٣، وكان في الجامعات الثلاث التي عمل فيها أستاذاً ورئيساً لقسم القانون الجنائي. وفي عام ١٩٨٣ استقال من جامعة الكويت وعاد إلى دمشق، وقد انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٩٠ عضواً عاملاً فيه، وصدر المرسوم الجمهوري بذلك ذو الرقم ٢٠٥ والتاريخ ١٩٩٠/٥/٢٧ فشارك في أعمال المجمع ولجانه بكل كفاية واقتدار. أما اللجان التي شارك فيها فهي لجنة المخطوطات وإحياء التراث، لجنة المجلة والمطبوعات، لجنة الأصول. ولقد كان له حضور متميز في جميع اللجان التي كان عضواً فيها.

من مؤلفاته: الإجرام السياسي، أصول المحاكمات الجزائية، دراسات معمقة في الفقه الجنائي المقارن، المفصل في شرح قانون العقوبات، الإجرام الدولي، القانون الجنائي المغربي، المسطرة الجنائية المغربية، الوسيط في شرح قانون الجزاء الكويتي، الوسيط في شرح أصول المحاكمات الجزائية الكويتية.

## رحيل الأستاذ الدكتور عبد الوهاب حومد
## مكتبة الأسد بدمشق ٢٠٠٢/٣/٢١

**أيها الحفل الكريم:**

لكم هو صعب أن يتحدث المرء في موقف مهيب كهذا الموقف عن عَلَمٍ من أعلام بلاده وقلعة أخلاقية من قلاعها المناقبية!

وتتأتى هذه الصعوبة من الخوف من ألا يتمكن من إيفاء المتحدَّث عنه حقَّه من حيث مكانتُه ومآثرُه الحميدةُ بعد أن غادرنا إلى الدار الآخرة.

الأستاذ الدكتور عبد الوهاب حومد اسمٌ كبيرٌ تردد على نطاق الساحة القومية علماً وفضلاً وروية واتزاناً وحكمة وبياناً، إنه رجل المواقف الصلبة التي لا يساوم عليها، ولا يقبل التنازلَ عنها مهما تكُ المغريات.

كان رحمه الله قد جمع بين تخصصي الأدب والقانون، ولئن كان إيفاده إلى فرنسا للحصول على الإجازة في الآداب، وقد حازها بكل كفاية وجدارة، فإن عزيمته الجبارة عززت توجهه نحو دراسة الحقوق فحاز هذا التخصص أيضاً، وبذلك اجتمع في شخصه رجل القانون ورجل الأدب.

ويبدو أن نزعته الإنسانية هي التي دفعته إلى دراسة القانون أيضاً وإلى أن يؤثر هذا التخصص في حياته العملية، إذ إن وقوفه إلى جانب المستضعفين ومن تغتصب حقوقهم ينسجم ونوازعَ الخير في نفسه وكراهيةَ الظلم، ذلك لأن من عرف الحق عزّ عليه أن يرى مظلوماً، بيدَ أن شعوراً دفيناً بقي يلازمه وهو أنه ليس غريباً عن الأجواء الأدبية التي تقلب في أحضانها زمناً قبل أن تنتزعه من جناتها الوارفة وأنغامها الشجية صرامةُ القانون وتجهمُ قسماتِ مواده المستعصية التي لا تنشر الدفء دوماً في النفس على حد تعبيره.

ولئن كان قد اجتمع في شخصه رجلُ القانونِ والأدبِ فإن هذا يدل على تنوع في المواهب وتعدد في القدرات وتميز في الكفايات، وقوة في الإرادة وعلو في الهمة، ولقد رافقته هذه السمات في حياته العملية فكانت له صولات في ميدان السياسة نائباً ووزيراً مراراً، وليس من قبيل المصادفة أن يختار لشغل مناصب متعددة تنوعت مهامها ووظائفها، فكان وزيراً للعدل

وللمعارف والمالية وللخارجية بالوكالة، ووزيراً للتخطيط في القاهرة إبان الوحدة بين سورية ومصر. وفي هذه المواقع كافة أثبت جدارته وتميزه، كما أثبت إخلاصه ونزاهته واستقامته، فكان نعم الوزير، شرفت به المناصب وازينت به المواقع.

أسهم في وضع الدستور السوري عام ١٩٤٩م، واختارته الجمعية التأسيسية لوضع الدستور أن يكون مقرراً عاماً للجنة فقام بأعباءِ هذه المهمة بكل كفاية واقتدار، وصاغ الدستور في مائة وست وستين مادة، وكان أول دستور عربي يقرر في المادة الأولى منه أن سورية جمهورية عربية ديمقراطية نيابية وذات سيادة، وأن الشعب السوري جزء من الأمة العربية، وقد منحته الحكومة آنذاك وسامَ الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، كما منحه الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٥م وسام الجمهورية المصرية من الطبقة الأولى تقديراً لمواقفه القومية.

آمن رحمه الله بأن إعداد الأطر البشرية وتنميتَها إنما يجيء في مقدمة الأولويات للنهوض بالوطن والارتقاء به. ومن هنا عندما تسلّم وزارة المعارف مرتين إحداهما عام ١٩٥١م والثانية عام ١٩٥٦م قام بإيفاد ما يزيد على ستمائة موفدٍ إلى الجامعات المصرية والجامعات الغربية، إلى جانب تعزيزه مجانيةَ التعليم بعد أن نص الدستور السوري عليها، فسعى جاهداً إلى ترسيخ المجانية واقعاً في جميع مدارس التعليم العام التابعة لوزارة المعارف.

كان رحمه الله وانطلاقاً من عاطفته القومية وإيمانه بالعروبة من أشدّ أنصار الوحدة بين سورية ومصر والحريصين على استمرارها، إلا أن صدمته كانت كبيرة في الانفصال، وظل ولاؤه للوحدة قائماً طوال عهد الانفصال، وكانت فرحته عارمة لدى سقوط رموز الانفصال وعودةِ سوريةَ إلى مسيرتها الوحدوية القومية، فعاد إلى ممارسة نشاطه السياسي لفترة قصيرة، ثم انصرف كلياً إلى التدريس الجامعي خارج سورية في المغرب والكويت حيث تولى رئاسة قسم القانون الجنائي في جامعتي الرِباط والكويت.

درّس في كلية الحقوق في الجامعة السورية إلى جانب ممارسة العمل السياسي القومي موادَّ القانون ووضع في مجال التأليف مؤلفات خمسة مشهورة أعيدت طباعةُ بعضِها عدة مرات ومن هذه المؤلفات:

«الإجرام السياسي والإجرام الدولي وأصول المحاكمات الجزائية ودراسات معمقة في الفقه

الجنائي المقارن والمفصل في شرح قانون العقوبات، وأضاف إليها شرح قانون الجزاء المغربي، وشرح قانون الجزاء الكويتي».

وتجدر الإشارة إلى أنه ترك جامعة دمشق مع وقوع الانفصال ولم يعد إلى التدريس فيها بعد هذا التاريخ إثر صدمته الكبرى في الانفصال.

من سماتِه العلميةِ الموضوعيةُ وكراهيةُ التعميم، ذلك لأن التعميم ينأى عن الموضوعية. ومن هنا رأيناه في دفاعه عن نفر من المستشرقين خدموا الثقافة العربية يقول: «وتقتضيني الأمانة العلمية أن أشير إلى أن المستشرقين الجواسيس قلة. أما هؤلاء الذين أحبوا الحضارة العربية وساعدوا في نشر كنوزها، وألفوا عنها المؤلفاتِ العميقةَ والرائدةَ وعلمونا طرق البحث في تاريخنا وآدابنا فإنهم الكثرة الكاثرة، ولقد عرفتُ من بينهم رحمهم الله من كانوا أساتذة لي، وكانوا يُعلنون عن ضرورة احتلال الحضارة العربية مكانها المرموق، حتى إن منهم من شارك العرب في مظاهراتهم التي طالبوا فيها باستقلال الجزائر وفي قلب باريس، ولن أذكر من أعمالهم إلا: L, encyclopedie de 1, islam ومؤلفات بروكلمان وبلاشير وغوستاف لوبون وغولدزيهر...وليس من حقنا أن نرميهم جميعاً بسوء القصد».

وانطلاقاً من إيمانه بوحدةِ الثقافةِ العربية ونظرتِه القوميةِ إلى الأدب العربي يؤيد الأستاذَ المرحومَ الدكتور شكري فيصل في دراسته الجادة عن مناهج الدراسة الأدبية ونبذِهِ النظريةَ الإقليمية في دراسة أدبنا العربي وفق التقسيمات الإقليمية فلنستمع إلى الدكتور حومد يقول: «وللأمانة أنا علَّمت طوال حياتي أهمية البيئة الإقليمية في حركة الإجرام بعد أن استهوتني لفترة طويلة نظرية الوراثة، ولكن شتان بين الانحراف من البيئة الفاسدة وبين حركة إبداع منطلقةٍ من روحٍ شاعرية تتحسس بالواقع دون شك، ولكنها تحوم في الأجواءِ العليا التي هي مواطنُ الوحي والإلهام».

وتعود النظريةُ الإقليميةُ في جذورها الأدبية إلى الفرنسي Taine، ومنطلقها قاعدة مادية هي أن لكلِّ واقعة سبباً، ولكل نتيجة مقدمة. ولكن إذا صح تفسيرُ القوانين المادية بهذه الحتميةِ المتزمتة، فإن في الحياة الأدبية نوازعَ وأخيلةً وعواطفَ وإلهاماتٍ تتمرد على كل القيود والقوالب المادية...وفي إيماننا نجد بروز نظرية نفسية في تعليل الإجرام، إلى جانب نظرية البيئة التي يرفع

لواءها عالياً الأستاذ الأمريكي سذرلاند...

وإذن فالعناصر الذاتية تبقى في حياة الأدب أقوى المؤثرات الإبداعية.

ويتابع الدكتور حومد قائلاً: «نحن الذين نشأنا على الإيمان بوحدة العرب، نشعر بشيء من الصدمة والامتعاض حين يراد أن يفرض على مشاعرنا مفهومٌ إقليميٌ لا يمكن أن تستسيغه نفوسُنا...».

ومن سماتِه أيضاً أنه كان رحمه الله لا يجاملُ في قول الحق، إذ إنه يرى أن إثبات الحقيقة ولو كانت مرة المذاق أثمنُ في نظر العالم المتبتل من أحاديث المجاملة التي تدغدغ بعض الأحلام لأهداف غير علمية، ولكنها تسيء إلى الحق والتاريخ.

وهكذا رأيناه لا يجامل أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل في بيان أسباب تخلفنا، إذ إن المسؤول عن أسباب تخلفنا في نظر الدكتور شكري فيصل هذه القوى غير المجهولة...قوى أعداء الإنسانية الذين يؤمنون بالتمايز ويضعون الشعوب طبقات، أولئك أكلة لحوم البشر الذين يختلسون ثروات هذه الشعوب ويجهضون ثوراتها.

ويعقب المرحوم الدكتور حومد على هذا الرأي قائلاً: أليست لنا مسؤولية مباشرة وضخمة في تخلفنا؟ إننا نشهد اليوم ميلاد عملاق ضخم في أوروبا التي تناست دولها أحقادها القديمة والدماء التي سفحت بغزارة في ساحات الحروب قروناً طويلة، واندمجت في مجموعة اقتصادية كبرى وهي تعمل جاهدة على الذوبان في كيان سياسي مدهش، ومع ذلك فنحن ننظر كالمبهوت الذي لا يتعظ ولا يستوعب.

ويعلنها مدوية إلى درجة اليقين: ويقيناً لو أن الله مد في عمر الدكتور شكري وعاش أحداث ١٩٩٠ و١٩٩١م المبكية على الساحة العربية لكان أدخل تعديلاً جذرياً في تفكيره القومي وفي تحديد المسؤولية عن أسباب تخلفنا.

**سيداتي سادتي:**

«الذكر للإنسان عمر ثان» يذكره طلبته في الجامعات التي تتلمذوا على يديه فيها بكل إجلال وإكبار، ولعمري يكفي المرء شرفاً أن يجل في الحياة والممات وأن يعطر ذكره المجالس في حياته وبعد مماته في الوقت الذي يشار فيه إلى نفر على أنهم أحياء يتنقلون، ولكن ضمائرهم

ماتت ومشاعرهم الإنسانية تجمدت، فإذا هم أموات ولكنهم يعدون أحياء، ورحم الله شاعرنا إذ يقول:

موت النقيّ حياة لا نفاد لها  قد مات قومٌ وهم في الناس أحياءُ

ولا يمكننا أن ننسى مواقف الحنين والشوق لدى فقيدنا الغالي فعندما قرر العودة إلى سورية عام ثلاثة وثمانين حاول المسؤولون في جامعة الكويت ثنيه عن قراره وعن رغبته في عدم تجديد عقده ولكنه ظل مصراً على موقفه لينصرف إلى البحث والتأليف وكتابة المقالات وإلقاء المحاضرات بعد أن استبد به الحنين إلى دمشق، فلنستمع إليه يقول:

كويتُ لا تعتبي إني على عتبِ  بيني وبينك موصول من النسب
وبي لجلق تحنانٌ يؤرقني  شوقاً كنار الغضا مشبوبة اللهب
بها الأماسيُّ باقات معبقة  لو تاب كل محب عنها لم أتب
وفيك يجتاحني إحساس مغترب  يا بؤسها غربةً في موطن عربي!

وعلى هذا النحو من رقة المشاعر وتأجج العواطف خاطب رحمه الله ابنه غسان يوم عرسه في الخامس والعشرين من شباط ١٩٧٩م قائلاً:

غسان يا مهجتي يا فلذة الكبد  يا متعة النفس في دنياي يا ولدي
طال انتظاري ليوم أنت فارسه  والعمر يعصف بالأحلام والجسد
خلف المحيطات في الأسحار تؤنسني  وأنت مهوى الهوى المخضل في بلدي
وأدمعي حين تشكو الضر من مرضٍ  نارٌ تسيل على الخدين في كمد

رحمك الله يا أبا غسان الرحمة الواسعة، سعة ما قدمته لأمتك من عطاء امتد على نطاق ساحتها القومية من المحيط إلى الخليج، من المغرب إلى الكويت، وكان ألقه في قلب العروبة سورية الموقف والمبدأ، الوفية دائماً لقيمها، والمتمسكة دائماً بثوابتها القومية، والمنافحة دائماً عن الحق العربي بكل إباء وشموخ وكبرياء.

وستبقى الأجيال تقف أمام سيرتك العطرة والزاخرة بالعطاء مواقف الإجلال والإكبار والزهو والافتخار.

عزاؤنا ما خلفته وراءك من أبناء هم صنع يديك خلقاً وسلوكاً وأداءً، وما تركته من سيرة

زاخرة بالقيم عبقة بالمثل تتخذ منها الأجيال قدوة لها في قوة الإرادة ونزاهة السلوك ومؤلفات علمية هي ملاذ القانونيين ومراجع لهم، وأعمال جليلة هي محل تقدير محبيك وعارفي فضلك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## نعيم الرفاعي

## الأستاذ الجامعي في جامعة دمشق

ولد في حمص عام ١٩١٩، درس المرحلتين الابتدائية والمتوسطة في حمص، ثم انتقل إلى دمشق حيث حصل على الشهادة الثانوية عام ١٩٣٦، وأوفد إلى الجامعة الأمريكية في بيروت حيث حصل على شهادة الإجازة في الفلسفة وعلم النفس. بدأ بدراسة الماجستير وحصل عليها عام ١٩٤١. عيّن مدرساً في ثانوية التجهيز بدمشق عام ١٩٤١ ثم انتقل إلى حلب عام ١٩٤٣ ليدرس في مدرسة التجهيز، ودرّس في دور المعلمين أيضاً بحلب حتى عام ١٩٤٥، وعيّن مفتشاً للمدارس الابتدائية في حماه حتى عام ١٩٤٧، وعمل في وزارة الخارجية سنة ونصف السنة، ثم عمل أستاذاً مساعداً في المعهد العالي للمعلمين (كلية التربية). وفي عام ١٩٥٥ سميّ أستاذاً وأصبح عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق مرتين إحداهما عام ١٩٦٤-١٩٦٥ والثانية ١٩٧٢-١٩٧٦.

من مؤلفاته: علم النفس في الصناعة والتجارة- الصحة النفسية: دراسة في سيكولوجية التكيف- التقويم والقياس في التربية- العيادة النفسية والعلاج النفسي.

## رحيل الدكتور نعيم الرفاعي

## كلية التربية بجامعة دمشق– نيسان ٢٠٠٣

**أيتها الأخوات، أيها الأخوة،**

**أيها الحفل الكريم:**

عرفت فقيدنا الغالي أستاذاً لي فزميلاً فصديقاً.

عرفته أستاذاً لي إذ تعود بي الذاكرة إلى النصف الأول من الستينيات، وبالتحديد إلى عام ثلاثة وستين وتسعمائة وألف عندما انتقلت من كلية الآداب إلى كلية التربية لأتابع دراستي بغية الحصول على شهادة الدبلوم العامة في التربية، وكان في كلية التربية يومئذ كوكبة من الأساتذة المجلين والمبدعين في مجالات تخصصهم، منهم من انتقل إلى رحمته تعالى، ومنهم من ما يزال على قيد الحياة أمد الله في أعمارهم، وكان لكل منهم طريقته الخاصة في التدريس وأسلوبه في الإلقاء والتفاعل والحوار، وشدَّ انتباهي أسلوب أستاذنا الراحل نعيم الرفاعي بمنهجيته وفصاحته، إذ يظل ذهنك معلقاً بمحاضرته حتى إن الوقت ليمر دون أن تحس به.

وتابعت دراسة الدبلوم الخاص ومواد الماجستير النظرية بعد نيل الدبلوم العامة في التربية، وكان آنذاك عميداً للكلية، ويدرس مادة أصول البحث العلمي، وكانت منهجيته في التدريس أن يذكر لك مراجع للمقرر ويدفعك إلى البحث والتنقيب في هذه المراجع معتمداً على نفسك ومطبقاً منهجية التعلم الذاتي في الوصول إلى النتائج، وإليه يرجع الفضل الكبير في غرس عادات التعلم الذاتي في نفوسنا تعزيزاً لما اكتسبناه في كلية الآداب على يد أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل، إذ كان يتبع النهج نفسه.

وعندما التحقت بكلية التربية مدرساً عام ١٩٨٠م بعد عودتي من الإعارة في الجزائر والكويت، وكان أستاذنا المرحوم آنذاك رئيساً لقسم الصحة النفسية والتربية التجريبية، تسلمت وكالة الكلية للشؤون العلمية، وغدا زميلاً في جلسات مجلس الكلية، وفي اللجان التي كانت تؤلف لمناقشة مخططات للتسجيل في الماجستير والدكتوراه، أو لمناقشة رسائل أنجزها طلاب هاتين الشهادتين، أو في اللجان المشكلة لإعادة النظر في مقررات الكلية.

وعندما تسلمت عمادة كلية التربية تحولت الزمالة إلى صداقة، إذ كنت أستشيره في بعض

الأمور فأجد لديه الرأي الحصيف والتحليل المنطقي للقضايا، والنصح والإرشاد، يزين ذلك كله تهذيب جم وكياسة قلّ نظيرها، ووقف إلى جانبي مؤازراً ومساعداً، وكنت أقدمه مثالاً وقدوة للآخرين في دقته وحرصه على النظام وتقيده بالمواعيد، فما تخلّف رحمه الله عن محاضرة، ولا عن جلسات مجلس الكلية، ولا عن مراقبة امتحانية، ولا عن تقديم النتائج في مواعيدها المحددة، وعندما كانت تقضي ظروف الطيران عدم عودته في مطلع العام الدراسي كان يتصل هاتفياً من أمريكا ليخبر أنه سيتأخر يومين أو ثلاثة.

وكانت تحدث أحياناً اختلافات في وجهات النظر بين الزملاء، ولكنه رحمه الله كان يتعالى عن الصغائر، موضوعياً في إبداء وجهة نظره، يعطي لكل إنسان حقه.

وعلى الرغم من الصداقة التي كانت بيننا أتذكر أن بحثاً قدمته للنشر في مجلة جامعة دمشق، وقد كلّف أن يقوّمه من بين مقوّمين آخرين من داخل القطر وخارجه، وطبعاً تبقى أسماء المقومين سرية، وجاءت نتائج التقويم من الآخرين إيجابية دون أن تطلب من الباحث إجراء أي تعديل. أما تقويمه فلقد أشار فيه إلى الأمور الإيجابية ولكنه طلب إجراء تعديل في بعض جوانب البحث، وأدركت أن الملاحظات التي طلبت المجلة إليّ تعديلها إنما هي من طرف أستاذنا الرفاعي، ألم يقل: أسلوب الرجل نفسه. فأجريت المطلوب دون أن أسأله أو أبدي أنني عارف أنه من المقومين، ونشر البحث بعد إجراء التعديلات. وبعد نشره قلت له: أشكرك جزيل الشكر على ملاحظاتك على بحثي «البحث التجريبي ودوره في التجديد التربوي» الذي نشرته مجلة جامعة دمشق، وأقول لك بكل صراحة إنها ملاحظات قيمة زادت البحث غنى، ويصدق عليك مقولة «صديقك من صدقك». فابتسم رحمه الله، وقال: وكيف عرفت؟ فأجبته: وهل يخفى أسلوب أستاذنا؟.

اشتركنا معاً في ندوات ومؤتمرات تربوية، إن في داخل القطر أو في خارجه، فكان محلياً في طروحاته، واسعاً في ثقافته، متميزاً في مناقشته للآراء بكل منطقية وموضوعية، ومثالياً في احترام الرأي الآخر وتقديره، حتى غدا موئل الجميع.

وما أزال أتذكر إحدى الندوات التي حضرناها معاً في عمان حول ذوي الاحتياجات الخاصة من المعوقين، كيف غدا محور الندوة بعد المداخلة الأولى، وأصبح المرجع لها، يستشهد بآرائه، وكذلك

كان شأنه في ندوات عقدتها منظمة اليونسكو في كلية التربية بجامعة دمشق وفي وزارة الثقافة حول إعداد معلمي المدارس الابتدائية ليؤدوا وظيفة مزدوجة في تعليم الصغار والكبار وحول مناهج تعليم الصغار والكبار وطرائق تدريسهم، إذ كانت مداخلاته وآراؤه وتعقيباته تلفت اهتمام المشاركين في رزانتها وعلميتها ودقتها.

**أيها الحفل الكريم:**

لقد تميز فقيدنا الراحل بمنهجية علمية وبحسن عرض فكره، والتسلسل المنطقي في تقديمها، وتميّز بالدقة في إنجاز أعماله وأدائها بإتقان، وبالحرص الشديد على كتابة تقاريره العلمية بخط يده، كما تميز بلغته العربية السليمة وحسن استخدامها فصيحة في منأى عن الأخطاء، حتى إنه كان يصحح لغة حاملي الإجازة في اللغة العربية والدكتوراه أحياناً، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عمق انتمائه إلى أمته ولغتها الخالدة، الأمر الذي نفتقده لدى عدد من الدارسين في الشرق والغرب في أيامنا، إذ أصبح التسيب واللامبالاة في استخدام لغتهم القومية الأم ظاهرة مستشرية لديهم دون إحساس بالخجل ويا للأسف!

ولئن كنا قد تعلمنا منه رحمه الله دروساً كثيرة فإن من أهم الدروس التي تعلّمناها: التعلم الذاتي، والأداء المتقن، والحرص على استخدام اللغة السليمة، والترفع عن الصغائر، والكياسة واللباقة في احترام الرأي الآخر، والتهذيب الجم في التعامل مع الآخرين زملاء كانوا أو طلاباً أو مراجعين.

رحمك الله أيها المربي الكبير رحمة واسعة، وستظل مواقفك ماثلة في عقول عارفيك ومقدري فضلك، وأقترح على زملائنا في مجلس كلية التربية تسمية أحد مدرجات الكلية باسم أستاذنا الراحل تذكيراً للأجيال بعطائه التربوي وسيرته العلمية المعطرة.

وأتقدم من أسرة الفقيد وبناته الفاضلات بأحر التعازي القلبية، سائلاً المولى عزّ وجل أن يسكنه فسيح جناته، وأن يلهم الجميع الصبر والسلوان، وطوبى لمن كانت سيرته حسنة، فالذكر الطيّب للإنسان عمر ثان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## الدكتور عبد الكريم اليافي
## العضو العامل في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في حمص عام ١٩١٥، وحصل على البكالوريا السورية (القسم الثاني رياضيات) عام ١٩٣٥ وكان الأول في سورية، والتحق بكلية الطب فنال الشهادة الإعدادية P.C.B عام ١٩٣٦ وكان الأول فيها، وفاز في مسابقة الدولة للدراسات العليا في فرنسا صيف ١٩٣٦ فأوفد إلى فرنسا عام ١٩٣٧ لنيل الإجازة في العلوم، فنال الإجازة في العلوم الطبيعية من جامعة السوربون بباريس عام ١٩٤٠، وفي العام الذي يليه حصل على الإجازة في الآداب، ثم نال إضافة إلى الإجازة في العلوم والإجازة في الآداب خمس شهادات في الدراسات العليا في الفلسفة، وهذه الشهادات هي: شهادة علم النفس العام سنة ١٩٤٢، وشهادة فلسفة الجمال وعلم الفن سنة ١٩٤٢، وكان الأول فيها، وشهادة تاريخ العلوم وفلسفتها سنة ١٩٤٣، وشهادة الفلسفة العامة والمنطق سنة ١٩٤٣، وشهادة علم الأخلاق وعلم الاجتماع سنة ١٩٤٤، ثم حصل على شهادة دكتوراه في الفلسفة من السوربون سنة ١٩٤٥.

بعد عودته إلى سورية عمل مدرساً في تجهيز حمص عام ١٩٤٦، ثم أستاذاً مساعداً في علم الاجتماع بكلية الآداب في الجامعة السورية عام ١٩٤٧، فأستاذاً لكرسي علم الاجتماع منذ عام ١٩٦١، وعمل خبيراً في علم السكان في معهد العلوم الاجتماعية بالجامعة اللبنانية ببيروت من قبل الأمم المتحدة خلال الأعوام ١٩٧٤- ١٩٧٦، وفي المعهد العربي للتدريب والبحوث الإحصائية ببغداد ١٩٧٩-١٩٨١ من قبل الأمم المتحدة أيضاً.

وكان عضواً في المعهد العالمي لعلم الاجتماع، وفي الاتحاد العالمي للدراسة العلمية للسكان، وفي المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة، وفي مجلس معهد العلوم الجنائية والاجتماعية في القاهرة، كما كان من مؤسسي اتحاد الكتاب العرب في سورية عام ١٩٦٩.

من مؤلفاته: الفيزياء الحديثة والفلسفة، في علم السكان، المجتمع العربي ومقاييس السكان، تمهيد في علم الاجتماع، دراسات اجتماعية ونفسية، شموع وقناديل في الشعر العربي، دراسات فنية في الأدب العربي، فصول في المجتمع والنفس، تقدم العلم، جدلية أبي تمام، معالم

فكرية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، معجم مصطلحات التنمية الاجتماعية والعلوم المتصلة بها.

ونشر بحوثاً كثيرة في عدد من المجلات المتخصصة «مجلة عالم الفكر، مجلة التراث العربي، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلة الكاتب العربي، مجلة نهج الإسلام، مجلة التعريب،...الخ».

انتخب مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور اليافي عضواً عاملاً فيه عام ١٩٧٦ وكان مقرراً للجنة المصطلحات في المجمع خلال الأعوام ١٩٧٦-١٩٩٢.

وأسهم أيما إسهام في وضع المقابلات العربية للمصطلحات الأجنبية في لجنة ألفاظ الحضارة، وإليه يرجع الفضل في وضع مصطلح «الشابكة» مقابل «الإنترنت».

## كلمة في الحفل التأبيني
## للأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي
## باسم أصدقاء الفقيد
## مكتبة الأسد بدمشق– تشرين الثاني ٢٠٠٨

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**أيها الحفل الكريم:أسعد الله أوقاتكم.**

حـــيٌّ بـــذكراك لا مـــوتٌ ولا عـــدمُ  يـــا مـــن تخلـــدك الأخـــلاقُ والكتـــبُ

أجل أيتها الأخوات الفضليات والأخوة الأفاضل، إنَّ من تُخلّده سيرته العطرة ومناقبه الرفيعة وآثاره القيّمة ومواهبه المتعددة أدبًا وعلمًا، يبقى حيًّا في نفوس الأجيال، وصدق من قال:

مـــوتُ النقـــيِّ حيـــاةٌ لا نفـــادَ لهـــا  قـــد مـــات قـــومٌ وهـــم في النـــاس أحيـــاءُ

ولكم نجد في سيرة فقيدنا الغالي العلامة الدكتور عبد الكريم اليافي دراسةً وتأليفًا وممارسةً في الوسط الأكاديمي الجامعي والمجمعي من دروس وعبر تتخذ منها الأجيال مثالاً يُحتذى في الجدية، وقوة الإرادة، والحرص على التفوق والتميز، والمواطنة الحقيقية، والانتماء القومي، والنَّزعة الإنسانية، والإيمان برسالة أمته الحضارية، وتفاؤله بمستقبلها المشرق.

لقد عرفتُ الصديق الكبير الدكتور اليافي – رحمه الله – ، فعرفت فيه الوفاء والود الصافي والمحبة النقية والصراحة قولاً وفعلاً في الوقت الذي نجد فيه نفرًا نَأَوْا بسلوكاتهم عن هذه السمات النبيلة والقيم الرفيعة، فإذا هم يأتون هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه!

وفي أجواء كهذه كم نفتقدك يا أبا محمد، ونفتقد صدقَك ومودتك وظاهرك وباطنك وصفاء سريرتك وطهر مسعاك وشموخ رؤاك!

لقد كان الوفاء جبلة لفقيدنا الغالي في حياته كلِّها، ولا غرو في ذلك، فتلك هي سجيته، وهو القائل:

إن الوفـــاء ســـجية لا يزدهـــي بجمالهـــا إلا كـــريم العنصـــر

وهو الداعي إلى معاشرة أهل الوفاء:

مـــن أرادَ الـــدّنيا صـــفًا ووفـــاءً فليعاشـــر أهـــل الوفـــا والتصـــافي

لقد جسّد وفاءه سلوكًا وممارسةً مع أسرته الصغيرة، قرينته الفاضلة وأبنائه البررة، وجسّد وفاءه لمدينته التي نشأ فيها وترعرع، ولوطنه وأمته وللإنسانية كلها.

جسّد وفاءه لقرينته الفاضلة سموًّا في قوله:

إذا فتيـاتُ الحـيِّ أغـوينَ صـاحبي وأصـبح

فأشـهى غـواني الحـيّ عنـديَ زوجـتي وأحلـى

وجسّده عاطفةً متأججةً في ندائه لابنه الحبيب محمد:

محمـــــدٌ يـــــا حبيبـــــي أنـــــت الحبيـــــبُ الوحيـــــدُ

القلـــــب بيتـــــك فيـــــه مـــــا تشـــــتهي ومزيـــــد

وفي تبيانه لمحاسن ابنته الرفيعة التهذيب شادن:

محاســـنُ شـــادن تســـبي القلوبـــا أكـــادُ مـــن المحبـــةِ أن أذوبـــا

ذكـــاءٌ خـــارقٌ، وصـــفاءُ طبـــعٍ وقلـــبٌ طـــافحٌ عطفًـــا وطيبـــا

وفي محبته لمدينة حمص التي وُلد فيها، وكانت طفولته ونشأته الأولى في ربوعها:

يـــا حمـــصُ جســـمي مـــن ترابـــك فـــاعلمي أني علـــى الحـــبِّ القـــديم مقـــيمُ

روحـــي كـــذلك مـــن سمائـــك نفحـــةٌ حلَّـــت بهـــذا الجســـم وهـــو سَـــقيمُ

إني أديـــــن بلهجـــــتي وبمهجـــــتي وســـــذاجتي لـــــك والعطـــــاءُ عظـــــيمُ

أمَّ الحجـــار السُّـــود ســـرُّك أبـــيضٌ وكـــذاك قلـــبي أبـــيضٌ وســـليمُ

وما أسمى وفاءَك يا أبا محمد لعروبتك وانتمائك العربي، وأنت القائل:

ومحبـــتي هـــي للعروبـــة كلهـــا والعلـــمُ والإســـلام كـــل شـــعائري

كما يقول:

أنـــا ســـوريٌّ ولكـــن فـــؤادي عـــربيٌّ
وهـــوى قلـــبي تـــراثٌ كالـــدراري يعـــربيٌّ
لم أجـدْ مثـل بـلادي إنهـا المـأوى الزكـيُّ
أينمـــا كنـــت فـــإني عـــربيٌّ عـــربيٌّ

أما محبتك للغتك العربية وعشقك لها فقد ملأ عليك جوارحك وعالمك في حلّك وترحالك، وعلى الرغم من معرفة أبي محمد عدةَ لغات أجنبية «الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية والروسية» كانت اللغة العربية هي حبيبته التي ملكت عليه فؤاده:

كـــم مـــن لغـــاتٍ قـــد عرفـــتُ وإنمـــا لغـــة العروبـــة فـــوق كـــل لســـانِ
ملكـــت علـــيَّ جـــوانحي فأطعتهـــا حبًّـــا فعـــادت وهـــي طـــوعُ بنـــاني

وينادیها قائلاً:

أيـا لغـة القـرآن أنـت حياتنـا ومرآتنـا فيمـا نقـولُ ونفعـلُ

ويبيّن أن نسبة الضاد عنده أشرف النسب:

إذا تقاربـــت الأقطـــارُ أو بعـــدت فنســـبة الضـــاد عنـــدي أشـــرف النســـبِ
لم يبـــق شـــيء بأيـــدينا ســـوى لغـــةٍ نصـــونها بســـوادِ القلـــب والهُـــدُبِ

ويعدد مآثر لغته قائلاً:

هـــي نســـغُ وحـــدتنا ونـــورُ حياتنـــا وسماؤنـــــا والأرضُ و الأركـــــانُ

ولم يعبِّر عن محبته للغته شعرًا فقط، وإنما عبَّر عنها نثرًا فيقول: «وكما يحلو شعاع الشمس حين يتلألأ في الضحى والأصيل على لازورد السماء الصافي، كذلك يتلألأ اللفظ العربي الشريف في خاطري وفي سمعي وبصري، فأنعَمُ بطلاوته، وأقتاتُ من حلاوته، وأرشُف من معين رُوائه، وأحلم في آفاق جرسه».

وكان رحمه الله معجبًا بما كتبه اللغوي أحمد فارس الشدياق عن مكانة اللغة العربية، إذ يقول

الشدياق: «وما مثَلُ العربية إلا مثَلُ دوحةٍ ذات أفنان، في كل فننٍ منها أفنان، ما يزال ظلُّها ظليلاً ضافيًا، وموردها عذبًا صافيًا، بيدَ أن العرب والحق أقول لم يقدروها حقَّ قدرها، ولا عرفوا أنها الفاضلة وغيرها المفضول».

ويرى اليافي رحمه الله أن في خدمة اللغة العربية خدمةً للقومية العربية وخدمة في الوقت نفسه للحضارة الإنسانية، وكل تهاونٍ في شأنها معناه التفريطُ في حق أعلى روابط الوطن العربي، والتقاعس في جنب أغلى كنوز التراث الإنساني، لذلك كله لَزِم أن نحرص عليها حِرصنا على كياننا، وأن نستمسك بها استمساكنا بحقيقتنا، وكل جهد يصرف في هذا الشأن لن يضيع عبثًا في الميدان القومي ولا في الميدان الإنساني.

ولقد سألته مرّة: هل سألتْكَ شادن عن المبتدأ والخبر، فنظر إليَّ باسمًا ومستغربًا هذا السؤال، فقلت له: قرأت منذ يومين قول الشاعر:

وشادن تسألني ما المبتدأ والخبر؟ مَثِّلْهما لي مسرعًا فقلتُ أنتِ قمرُ

فضحك قائلاً: إن ابنتي شادن متمكنة من لغتها العربية، وضحكنا معًا وقلت له: كيف لا تكون متمكنة وهي ابنة أبيها العلاّمة اليافي.

ولكم كان أبو محمد معتزًا بتراث أمته، وهو القائل:

منه إشراقنا، ولولا الجذور الخضرُ ما هزت الصبا أغصانا

إلا أنه كان منفتحًا على تراث الشعوب الأخرى في الوقت نفسه:

أهوى تراث الشعوب طُرًّا كم فيه من قيمةٍ سنيّة
فكلُّ شعبٍ له مزايا أفاد من نورها البرية

ويرى أن:

أحلى علاقات الشعوب صداقةٌ تُبنى على الحبِّ الوثيقِ المسكرِ

ولكم كان ظمآن إلى أن يسود الوفا ونبله بين الأفراد والشعوب:

إني ظمئتُ إلى الوفاءِ ونبله وإلى إخاءٍ دائمٍ ميمون

وإلى علاقـــات الشـــعوبِ رضـــيةً وإلى ســـلام عـــادلٍ وأمـــينِ

**أيتها الأخوات، أيها الإخوة، أيها الحفل الكريم:**

تلك هي الصورة عن بعض سمات شخصية الصديق الغالي الدكتور اليافي، ولقد أعجبتُ أيما إعجاب بهذه الشخصية الفذة: أُعجبتُ بتفوقه وثقافته الموسوعية وبمناقبه الرفيعة وإنسانيته ورهافة حسه، أُعجبت بذكائه الحاد وذاكرته المتميزة، وإخلاصه في عمله وتفانيه في أدائه، كما أعجبت برصانة رأيه ورزانته، وبتبتله على محراب الدراسة الجادة في جامعة السوربون بباريس:

لـــيلايَ كانـــت كـــلَّ درس ممتـــع بمـــدرَّجٍ أو قاعـــةٍ أو مخـــبر
أمضـــي إلى «الســـوربون» في غـــدواتها وأعـــاود الجلســـات طـــيَّ الأعصـــر

ولقد توطدت صداقتي به في العقود الثلاثة الأخيرة، إذ إننا عملنا معًا في المجلس العلمي للاتحاد العربي للهيئات العاملة في رعاية الصم وفي مؤتمرات الاتحاد وندواته، وفي اجتماعات المركز العربي لبحوث التعليم العالي، واشتركنا معًا في مناقشات رسائل علميةٍ في كلية الآداب بجامعة دمشق، ثم عملنا معًا في المجلس العلمي للآثار في وزارة الثقافة يوم أن كنتُ وزيرًا لها.

ثمَّ تعززت هذه الصداقة في رحاب مجمع اللغة العربية، حيث كان لي شرف الجلوس إلى جواره في اجتماعات مجلس المجمع، وطالما استأنست بآرائه الرزينة، وطالما وجدت المتعة والفائدة في تعقيباته على بعض الآراء التي كانت تطرح، وبعض هذه التعقيبات كان جهارًا، وبعضها الآخر كان همسًا في الأذن!

ما اتصلت به في يوم من الأيام مستفسرًا عن موضوع أو كلمة، إلا كانت إجابته مباشرة، ولا عجب في ذلك فمخزونه الثقافي يتسم بالغنى والتنوع، يزين ذلك كله ذاكرة متقدة وسرعة بديهة، وتواضع قلَّ نظيره.

والحقّ أقول، كان اليافي رحمه الله آخر العمالقة الموسوعيين في زماننا الحالي، وما رأيت صفة الموسوعية تنطبق على عالم في أيامنا هذه كما تنطبق على الأستاذ الدكتور اليافي، ذلك لأن ثقافته هي ثقافة موسوعية بكل جدارة، فهو في دراسته الجامعية الأولى حاز شهادة الإجازة في العلوم «رف ك» وكان الأول في نيلها سنة ١٩٤٠، كما نال شهادة الإجازة في الآداب في السنة التي تليها. وفي دراساته العليا حاز خمس شهادات في تخصصات مختلفة «علم النفس العام، فلسفة الجمال وعلم الفن، المنطق

والفلسفة العامة، تاريخ العلوم وفلسفتها، علم الاجتماع والأخلاق».

ولا أدل على موسوعيته من تدريسه في سبع كليات جامعية هي « الآداب، العلوم، الصيدلة، الطب، التربية، التجارة، الشريعة» ومن تدريسه مقررات في ميادين المعرفة المختلفة «علم الاجتماع، علم الجمال، فلسفة العلوم، المنطق، تاريخ العلوم، أصول تدريس الفيزياء والكيمياء، علم النفس، الإحصاء الحيوي».

ولا أدل على موسوعيته من تآليفه الحسان في ميادين متنوعة «تمهيد في علم الاجتماع، في علم السكان، الفيزياء الحديثة والفلسفة، دراسات اجتماعية ونفسية، دراسات فنية في الأدب العربي، تقدم العلم، العلم والنَّزعة الإنسانية....الخ».

وهكذا تدركون أيها السادة مدى الخسارة الكبيرة التي مُنينا بها بفقدان هذه الشخصية الموسوعية المتعددة الجوانب معرفة وقيمًا وسلوكًا وأداءً، هذه الشخصية المثال والقدوة.

**أيها الحفل الكريم:**

لابد لي من الإشارة إلى باقة من الحكم التي كنا نلقفها من أستاذنا اليافي رحمه الله ومنها:

وقيمةُ المرءِ ما يسديه من عملٍ ... ما المرءُ في هذه الدنيا سوى خبرِ

فلا تحتفل بالعيشِ عمرَك والتمس ... سموَّ المزايا فهي أحرى وأقمنُ

والحبُّ أجملُ ما غنّى به بشرٌ ... يحيا به الدوحُ والأزهارُ والثمرُ

«إن الطبيعة تبدو صماء لا تسمع، وعمياء لا تبصر، وبكماء لا تنطق، ولكن الإنسان هو سَمْعُها الذي به تسمع، وبصرُها الذي به تبصر، ولسانها الذي به تنطق، إنه هو الذي يمنحها بالعلم والفن سمعًا وعينين ولسانًا وشفتين».

ولقد رويت له حكمة هندية أُعجب بها، وطلب إليَّ كتابتها له، والحكمة تقول: «العقلاء هم الذين يرون الأحداث قبل وقوعها، والحمقى هم الذين لا يرون الأحداث إلا ساعة وقوعها، والمجانين هم الذين لا يرون الأحداث حتى بعد وقوعها».

كما سجلت له حكمة تضمنها كتاب «داغستان بلدي» لرسول حمزاتوف، وهذه الحكمة هي: «لا، لم يكن شجاعًا، ولا حكيمًا، لكن انحنِ له فقد كان إنسانًا. افقد كل ما تملك، لكن

لا تبع الإنسان فيك ولا تفقده».

ولقد عقب على هذه الحكم قائلاً: الحكمة هي أصفى رحيق يقطره عقل الإنسان.

وثمة عقول كبيرة بمنْزلة المصابيح في تاريخ البشرية، وما أحوجنا إلى هذه العقول الكبيرة في عالمنا!

وكان يرى أن الحوار في قضايا العلم والفلسفة والفكر إنما هو من مزايا الحضارة الإنسانية الخيّرة النيّرة الفاضلة، ذلك أنّه في الحوار تثارُ أمورٌ فكريّة، وتثارُ مشكلاتٌ علميّة، وتتسق المعارف، وتتقدّم تقدّمًا وطيدًا، وتتجلّى المواهب.

ولقد تخيّر ما جرى من حوار بين عالمين فيلسوفين من أشهر علماء الإنسانية ومفكريها الأعلام، ومن أكثرهم مناقب وأعمالاً تركت آثارًا بالغةً في تاريخ العلم والفلسفة، ألا وهما أبو الريحان البيروني والشيخ الرئيس ابن سينا، وكيف طرح أبو الريحان سؤالاتٍ علمية وفكرية على الشيخ الرئيس وهما في مقتبل العمر وريعان الشباب، وما أجاب عنها ابن سينا.

وإن النضال في عصرنا الحاضر إنما هو نضالٌ في ميدان الفكر وسباقٌ في حلبة الثقافة ومباراةٌ في مضمار العلم، فالعلم نورُ المجتمعات وهاديها وقائد الأمم والشعوب في سبيل الحضارة الإنسانية ودليلها الأمين.

وما أنبلها من صرخةٍ انطلقت من أعماق فقيدنا الغالي تجاه ما يجري في عالمنا المعاصر، وفي ظلال عولمةٍ متوحشةٍ يسحق فيها الإنسان إذ يقول:

تبًّا لقومٍ يدَّعون حضارةً ... ونفوسهم في اللؤم كالذؤبان

ليس الحضارةُ غلةً مسروقة ... من أذرع العمال والأجفان

إنَّ الحضارةَ رفعةٌ ومكارمٌ ... وسموُّ أخلاقٍ وصدقُ بيانِ

ما ضرَّ لو جعلوا السّلام علاقةً ... بين الشّعوب تدانُ كالأديان

تلك الصرخة المنبثقة من ضمير إنسانٍ كبير فُطر على المحبَّة والسلام في حياته كلِّها وهو القائل: «على أني في حياتي فطرت على محبة الحياة ومحاسن الكون وجمال الطبيعة، وعلى الأنس بمن عرفت من النّاس ولاسيما أصدقائي والمقربين مني، وما أحلى السعادة التي تتفجر في قلب

الإنسان حين يشعر أنه يعيش في جو ملؤه المحبة والحنان والتعاون والتفاؤل! وعلى الرغم من قتامة الأجواء، وضخامة التحديات التي تواجهها أمتنا فلقد كان صديقنا الكبير متفائلاً بعودة مجدها الغابر إذ يقول:

سـنجهَدُ وسـع الـنفس في خدمـة العـلا إلى
عصـورٌ تقضَّـتْ كـنَّ بالمجـدِ حُفَّـلاً وسـوف

رحم الله العلامة الكبير الدكتور اليافي الرحمة الواسعة، سعة ما قدّمه لأمته من أفانين العطاء الفكري، والتي كان قد منحه بسببها السيد الرئيس بشار الأسد وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة تقديرًا لعلمه وثقافته وإكبارًا لمناقبه وإخلاصه لوطنه وأمته.

وتعازينا القلبية الحارة لأسرته الأخت الفاضلة قرينته الكريمة السيدة أم محمد وابنه المحترم الدكتور محمد، وابنته الرفيعة التهذيب الدكتورة شادن، وإلى آل اليافي الكرام وتلامذته ومحبيه وأصدقائه وإلى الناس كافة لأنه كان الإنسان الإنسان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

**وجيه الأسعد**

**الأستاذ المحاضر في جامعة دمشق**

ولد في قرية عين الجاش في محافظة طرطوس عام ١٩٢٧

مجاز في الفلسفة من جامعة دمشق عام ١٩٥٣ والحقوق عام ١٩٦٦

مدرس علم النفس التربوي وعلم الاجتماع في دار المعلمين بحلب ١٩٥٤-١٩٥٧

ومدير لعدة ثانويات في القطر

خبير اليونسكو في علم النفس التربوي ١٩٦٨-١٩٧٣

عمل موجهاً أول في وزارة التربية ١٩٧٤-١٩٨٣

وكان مشرفاً على التربية العملية في كلية التربية بجامعة دمشق ١٩٨١-١٩٩٣

توفي عام ٢٠٠٩.

من مؤلفاته المترجمة: الإيديولوجيات- الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث- المرأة بحث في سيكولوجية الأعماق- انتصارات التحليل النفسي- تفسير الأحلام- دراسات إعلامية- العقد- الموهوبون- التنويم المغناطيسي- الأصول وأصول الرواية- القلق والحصر- النرجسية- طفولة الفن.

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**كلمة في الحفل التأبيني**

**للمرحوم الأديب والمربي والمترجم وجيه الأسعد**

**الثلاثاء في ٢٠٠٩/٢/١٠ بمكتبة الأسد**

**آل الفقيد وذووه، آل الأسعد الأكارم.**

**أيتها الأخوات الفضليات، أيها الأخوة الأحبة.**

**أيها الحفل التأبيني الكريم.**

**أسعد الله أوقاتكم:**

إذا كان الشاعر الكبير بدوي الجبل يقول:

ورود الربـــا بعـــد الربيـــع بعيـــدةٌ ويـــدنيك منهـــا في قـــواريره العطـــرُ

فتلك هي حالنا مع السيرة العطرة لفقيدنا الكبير الصديق الصدوق الأستاذ وجيه، فهو لئن غاب عنا جسماً وبعد مقاماً، إنه حيٌ في عقولنا وقلوبنا ووجداناتنا، حيٌ بالآثار القيّمة التي خلّفها وراءه، وبالعمارات البشرية التي بناها فأحسن البنا، وبالسيرة المناقبية العطرة التي ينطبق عليها قول القائل:

يضـــوع عبـــيرُ المســـك إن ذكـــر اسمُـــهُ فنـــذكره والطيـــب يعشـــقه القلـــبُ

ما من مكان حلّ فيه إلا حلت النزاهة والجدارة، والعفة والطهارة.

وما من عمل أسند إليه إلا وكان فيه القدوة والمثال سلوكاً وأداءً وإتقاناً، إن كان ذلك في تدريسه بدار المعلمين بحلب، وثانوية جول جمال باللاذقية وكلية التربية بجامعة دمشق، وفي إدارته لعدة ثانويات منها ثانوية الدريكيش وثانوية صافيتا، وفي تقديمه الخبرة والمشورة لصالح منظمة اليونسكو الدولية، وفي عمله التوجيهي بوزارة التربية، وفي إشرافه على الطلبة المعلمين في كلية التربية بجامعة دمشق، وفي ترجمته لأمهات الكتب في علم النفس بوزارة الثقافة.

والواقع حيثما حلَّ حلت الثقافة والخصوبة الفكرية والتوجيه السديد والرأي الرشيد! كم من جهود كبيرة بذلها في ميدان الترجمة والتأليف، إذ زادت الكتب المترجمة على خمسين كتاباً!

وكم من جهود كبيرة بذلها في مجال تأليف كتب الفلسفة وعلم النفس بوزارة التربية، وفي تحديث هذه الكتب عبر عملية مستمرة لا تعرف الركود، وتنأى عن التوقف! وكم من طلاب نهلوا العلم من يَنْبوعِ معارفه، فما ضنّ بعلمه على مستفسر أو مستفيد، يزودهم بإرشاداته، ويستزيدهم بتواضعه، فكان محجة طالبي العلم ينهلُون من مورده العذب، ويجدون لديه ما طاب من حديث في دقائق الفلسفة وعلم النفس! وكم من مخالطين له كانوا يلقَفون درر الفكر وروائع الحكم في جلساته الغنية!

**أيها الحفل الكريم:**

لقد تسلمت إدارة ثانوية الدريكيش في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي، وكان رحمه الله مديراً لهذه الثانوية من قبلُ في مطلع الستينيات وفي عهد الانفصال. ولقد وجدت ذكره الطيّب على ألسنة الطلاب والمدرسين معاً، فما أن يذكر حتى تمثُلَ على منصة من المناقب أخلاقه الفاضلة ومواقفه القومية النبيلة، وهل يمكن أن يُنسى موقفه عندما أُنزل علم الوحدة بين سورية ومصر، علمُ الجمهورية العربية المتحدة، ورفع مكانه علم القطر في عهد الانفصال، حيث قال لطلبته: حيّوا علم الوحدة أولاً قبل إنزاله، لأنه رمز لوحدة أمتنا، وسنظل يا أبنائي الطلبة نناضل حتى تتحقق هذه الوحدة مهما تكُ العقبات!

كان رحمه الله يؤمن أن القومية العربية ليست فلسفة قومية ضيّقة، ولا توجهاً محدوداً قوامه الأثرة والتعصب، وإنما هي فلسفة اجتماعية مثالية بناءة تقدمية، تدعو كل عربي إلى محبة أمته العربية ووطنه العربي، وإلى الاعتزاز بماضي هذه الأمة، وإلى العمل التقدمي لحاضرها ومستقبلها، كما تدعو إلى محبة الإنسانية وخير البشرية.

لقد زودني فقيدنا الغالي بنتائج تجربته في أثناء عملي مديراً لثانوية الدريكيش من بعده، ثم تزاملنا في مجالات العمل بالإدارة المركزية بوزارة التربية، ومن ثم في كلية التربية، وكنت حريصاً على أن يكون عضواً في المجلس الاستشاري التربوي عندما كنت وزيراً للتربية

نظراً لكفايته وخبرته المتميزة، فكان خلال هذه المسيرةِ كلها الصديق الصدوق، ومثال الود والإخلاص.

وطالما كان يتصل بي هاتفياً في أثناء عملي بوزارة الثقافة ليخبرني بأنه مشتاق، وأنه سيأتي لزيارتي، فكان يزورني بصحبة ابن أخيه العزيز منذر، ولكم كنت أستمتع بزياراته لأنهل من معين فكره وعذب حديثه، ومحبته الصافية النقية.

لقد كان رحمه الله أبيَّ النفس وعزيزها، لم يطلب أمراً يخصه ولا في استجرار منفعة لنفسه، وإنما كان يقف خبرته لخدمة بلاده وأمته، وإن أنسَ فلا يمكن أن أنسى عقد الخبرة الذي وقعته معه في وزارة التربية، وتبين قانونياً لدى تدقيق العقد أن المبلغ الذي تم التعاقد عليه لا ينسجم والنصوص القانونية باعتباره متقاعداً، فاعتذرت منه امتثالاً للقانون، فبادرني قائلاً وهو يبتسم: لا تظنَنَّ أنني أفكر في موضوع كهذا، وسأستمر في عملي بلا مقابل مادي، واستمر يقدم الخبرة والمشورة في مجال تأليف كتب الفلسفة دون أي تعويض مادي، ولكم أكبرت هذا الموقف المناقبي الرائع من شخصية وقفت نفسها لخدمة وطنها بكل إباء وشموخ وتفان. وطالما كان يساعد غيره وينسى نفسه، وقد استغربت عندما علمت بأن له كتباً في مطبعة وزارة الثقافة، وبقيت في الوزارة وزيراً لها عدة سنوات، ولم يذكر لي في يوم من الأيام، وهو الصديق الغالي، أن له كتباً في المطبعة، ويطلب الإسراع في إنجاز طبعها، والواقع ينطبق عليه قول الشاعر:

ونفسي لو أن الجمر مسَّ إباءَها  على بشرها الرّيان لاحترق الجمرُ

**أيها الحفل الكريم:**

إن من ينعم النظر في حياته الحافلة وفي أعماله ومآثره العديدة يدهش من غناها، وإليه يرجع الفضل في إغناء المكتبة العربية بترجمة أمهات الكتب في ميادين علم النفس ومدارس التحليل النفسي وانتصاراته المذهلة، والوقوفِ على سيكولوجية الأعماق لدى المرأة والموهوبين، وفي مجال الشائعات والعقد النفسية والضغط النفسي والقلق والنرجسية والانتباه وتفسير الأحلام والتنويم المغناطيسي... الخ.

وكانت منهجيته في التأليف تتسم بعمق في التفكير، وبراعة في التحليل، وترتيب للأفكار،

وإحاطة بالمعاني، وتبدى ذلك كله في مؤلفاته تنسيقاً وترتيباً ودقة وتأثراً بالمنطق وأقيسته.

ومن يتفحص الأجزاء الستة للمعجم الموسوعي في علم النفس الذي ترجمه الصديق الفقيد يلمس من خلاله الغنى في المصطلحات، والطريقةَ العلمية التي توخاها عند نقل المصطلحات وتعريبها بما هو معروف عنه من سعة في المعرفة، وغَيْرَةٍ على اللغة، وحسنِ التصرف في أدائه بأسلوب أنيقِ العبارة، سلسِ الإشارة، قريبٍ للأفهام، وبعيدٍ عن الغموض والالتباس، وما كانت هذه القدرةُ لتتأتى له لولا تمكنه من اللغة العربية قواعد وأصولاً وطرائق اشتقاق، فقد طوّع اللغة العربية للتعبير عن مصطلحات علم النفس الحديث، وما كانت هذه القدرة لتتأتى له لولا الاطلاع والمثابرة ومحبة البحث والشغفُ به والفهمُ والدراية، إذ إن جبلته أعدته للصبر على المطالعة، والجلدِ على الكتابة، فأتحفنا بهذا العدد الكبير من الكتب القيمة والدراسات المتميزة.

كان الصديق الغالي الأستاذ وجيه رحمه الله، قوي الإرادة، عالي الهمة، طيّب القلب، رقيق الشعور، إنساني النزعة، صريح الكلام، صادق المودة، صافي المحبة، نافذ البصر، زاهداً بالشهرة.

عرفت فيه إباء النفس والتواضع، ولكنه مع وداعته شديد الشكيمة لا تأخذه هوادة فيمن يزيغون عن الحق، ويجانبون الصواب، وطالما سمعنا منه عبارة «لا تَغْلَط»، كما عرفت فيه طهارةَ النفس وعفة اللسان وعلو الأخلاق، ونزاهةَ السلوك، وإتقان الأداء، وهذه الصفات كافة جعلته محترم الرأي دوماً في جميع المواضع التي عمل فيها، ومحبوباً من زملائه بسبب تواضعه وإخلاصه وتجرده وإيمانه بالحق والحقيقة!

كان فقيد الثقافة الكبير عالماً يتحلى بأسمى ما يتحلى به العلماء من أخلاق، فإذا تكلم فهو العالم الثقة، وإذا رأى الحق رضخ له رضوخ من يؤمن به ولا يعتد بسواه، وطالما سمعنا منه كلمة «بالضبط» في تعقيبه على رأي سديد!

وكان رحمه الله موضوعياً في أحكامه، يعطي الناس حقوقهم، ولِمَ لا وهو المثقف الموسوعي فهو الفيلسوف والحقوقي وعالم النفس، فكان يؤيد حكمه العادل بذكر الأمور الإيجابية والأمور السلبية، إذ إنه لم يكن ينظر إلى الإيجابي وحده، ولا إلى السلبي وحده، وإنما كان منصفاً في إصدار حكمه بكل روية وأناة وإحساس عال بالمسؤولية!

وتجدر الإشارة إلى أن ثقافته النفسية انطلاقاً من «اعرف نفسك» والفلسفية انطلاقاً من «أن الفلسفة أم العلوم» «وأن الفلسفة جرأة وشجاعة»، والحقوقية انطلاقاً من أن «الحق يعلو ولا يعلى عليه» كانت تملي عليه هذه الثقافة أن يحيا في عالم القيم والمثل، عالمِ الحق والخير والجمال، فجسَّد ذلك كلَّه في سلوكاته وتصرفاته منهجاً وفكراً ونزوعاً وأداءً، فتبدى لعارفيه منسجماً مع مبادئه، وفياً لقيمه، صريحاً في قوله وفعله، جريئاً في قول الحق، إنساناً في نظرته، ، حريصاً على الأكمل والأجمل والأبهى في مسيرة حياته كلها، لأنه جمع بين العلم والفضيلة انطلاقاً من إيمانه بفكرة سقراط وهي أن المعرفة أساس الفضيلة.

إن في فقدك أيها الصديق الغالي خسارة كبيرة لأهلك وأصدقائك وعارفيك ومجتمعك وأمتك، خسارة للثقافة والإبداع والإنتاج الفكري الهادف، ومعذرة من عارفيك إذا لم أتمكن في هذه العجالة من إيفاء مجدك حقه، ولكن ستبقى حياً لأنك من المبدعين، والمبدعون خالدون، وستبقى خفقاً في قلوبنا، ومثالاً في تطلعاتنا إلى ما فيه نبل الحياة وسمو المناقب وشرف الانتماء!

وإن الذي يعزي بهذا الفقدان ما خلَّفته وراءك من ذرية صالحة وآثار قيمة، وما تركته من سمعة عطرة يغبطك عليها أناس كثيرون! وعزاؤنا بفقدانك أنك ستبقى حياً في نفوسنا وعقولنا وعقول الأجيال من بعدنا، لأنك من أهل الإبداع، والمبدعون يبقون أحياءً في العقول والنفوس والضمائر!

إننا نتقدم من عائلة الفقيد، وآل الأسعد الكرام وذويه، بأصدق التعازي، ونسأل المولى تعالى أن يتغمد فقيدنا الغالي بواسع رحمته سعة ما قدمه لأمته من أفانين الثقافة، وأن يجزيه عن خدماته للعلم والثقافة وعروبته أوفى الجزاء، وأن يجعل مثواه الجنة، ويُلهمَ أهله وذويه وأصدقاءه ومحبيه الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون، والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

## الدكتور فاخر عاقل

## الأستاذ الجامعي في جامعة دمشق

ولد في كفر تخاريم في محافظة إدلب عام ١٩١٨، درس الابتدائية في بلدة الباب، والدراسة المتوسطة والثانوية في تجهيز حلب، حيث نال الشهادة الثانوية. وأوفد إلى الجامعة الأمريكية ببيروت، ودرس التربية وعلم النفس. تتلمذ على يدي المفكر قسطنطين زريق، ونال شهادتي الإجازة والماجستير من لبنان ليعود إلى سورية، حيث عمل مدرساً في دور المعلمين قبل أن يوفد إلى لندن لمدة ثلاث سنوات، نال بعدها الدكتوراه في علم النفس، وعاد إلى جامعة دمشق أستاذاً ورئيساً لقسم علم النفس، وعمل خبيراً في اليونسكو مدة سبع سنوات في مصر والأردن والسعودية. وأسهم في إنشاء الجامعة الأردنية ودرّس فيها، وقد طلب إحالته على التقاعد عام ١٩٨٣، وقد نال وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة عام ٢٠٠٢، وتوفي في حلب عام ٢٠٠٩.

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**كلمة في حفل تأبين المفكر الكبير الأستاذ الدكتور فاخر عاقل رحمه الله**

**الثلاثاء في ٢٠١٠/٣/٢**

**جامعة دمشق– قاعة رضا سعيد للمؤتمرات**

**الأستاذ الفاضل الدكتور نبيه عاقل**

**وآل عاقل الكرام، أيتها الأخوات الفضليات، أيها الأخوة الأحبة**

**أيها الحفل الكريم**

**أسعد الله أوقاتكم:**

أشرف بأن ألقي كلمتي باسم كلية التربية بجامعة دمشق عمادة وإدارة وأعضاء هيئة تدريسية وطلاباً، هذه الكلية التي وقف العالم الكبير فقيدنا الغالي الأستاذ الدكتور فاخر عاقل جلّ عمره في خدمتها، ورعاها بعلمه الغزير وثقافته الواسعة وعواطفه الوطنية الصادقة، إذ بفضل إشرافه العلمي منحت جامعة دمشق أول درجة للماجستير وأول درجة للدكتوراه، وبرئاسته لقسم علم النفس سنوات طويلة تم تطوير هذا القسم ورفده بكل جديد في ميدانه.

إذا كنا نجتمع اليوم لتأبين الراحل الكبير والعالم الجليل الأستاذ الدكتور فاخر عاقل رحمه الله فإنني لعلى ثقة من أننا لن نتمكن بكلماتنا من إيفائه مكانته الفكرية والمناقبية، إنه العالم بكل ما تحمل كلمة عالم من معانٍ ثقافةً ومعرفةً وخلقاً وتواضعاً وسمواً في القيم، وإن فقدانه خسارة للعلم والثقافة والوطن والأمة والإنسانية.

عرفته من خلال كتاباته قبل أن ألتقيه، وعندما التحقت بكلية التربية لدراسة دبلوم التأهيل التربوي عام ١٩٦٣ لم يكن آنذاك في الكلية، إذ إنه كان يعمل خارج البلاد، وعندما كنت أحضّر رسالة الدكتوراه في القاهرة كان جهابذة التربية وعلم النفس في مصر يسألونني عن الدكتور فاخر عاقل ويشيدون بعلمه وفضله.

وبعد حيازتي الدكتوراه حاولت نقل ملاكي من وزارة التربية إلى وزارة التعليم العالي فواجهتني صعوبات، ووحده المرحوم الأستاذ الدكتور فاخر عاقل كان متعاطفاً معي، ومستغرباً من غياب المنطق في السماح لي بالإعارة إلى جامعة وهران بالجزائر ومن ثم الإعارة إلى الكويت، ولم يسمح لي في

الانتقال إلى جامعة دمشق، وذلك في السبعينيات من القرن الماضي حيث بقيت ثماني سنوات بعد حصولي على الدكتوراه حتى تمت الموافقة على نقلي إلى الجامعة.

ولكم كانت سعادتي كبيرة عندما نقلت إلى الجامعة في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، ومن دواعي هذه السعادة أنني سأعاصر الدكتور عاقل وأفيد من تجربته الغنية وآرائه الحكيمة!

ولكم لجأت إليه عندما تسلمت وكالة الكلية للشؤون العلمية ومن بعدها العمادة لأستشيره في شؤوننا التربوية فأجد لديه الرأي الحصيف والنصح الأمين والمودة الصافية!

ولئن فاتني شرف التلمذة على يديه عندما كنت طالباً لم يفتني شرف التلمذة عليه بعد حصولي على الدكتوراه، إذ إنني كنت حريصاً على حضور المحاضرات التي كان يلقيها على الدارسين في دورة تدريبية أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الألكسو» عام ١٩٨١ في كلية التربية، حيث وجدت في محاضراته الثقافة الواسعة، واللغة الجميلة، والحذر العلمي الذي كان يبديه في إصدار أحكامه، وتركيزه على التربية في العمق فهماً وتمثلاً وإدراكاً وموازنة وربطاً واستنتاجاً وتوظيفاً، كما ألفيت في محاضراته تعزيزه الحوار الديمقراطي الهادئ، إذ لم يكن ليمل من أي سؤال يطرح عليه، ولو كان السؤال في منأى عن الموضوع، فكان يتقبل الأسئلة جميعاً ويناقشها بأسلوب علمي هادئ ورزين يدفع أصحابها إلى الاقتناع بالإجابات الشافية الوافية بكل نفس راضية، ويزين ذلك كله ابتسامته الحانية، فكان رائداً في تفهم الآخرين واستيعابهم وقدوة في الفهم والإفهام والإبلاغ والتواصل، وكان شامخاً في تواضعه، ومتواضعاً في شموخه.

وكانت منهجيته في إعطاء محاضراته وفي تأليف كتبه تتسم بالعمق في التفكير، والبراعة في التحليل، والترتيب في الأفكار، والإحاطة بالمعاني. وتبدى ذلك كله في محاضراته ومؤلفاته تنسيقاً وترتيباً ودقة وتأثراً بالمنطق وأقيسته، يزين ذلك كله أسلوب أنيق العبارة، واضح الدلالة، بعيد عن الغموض والالتباس، قريب إلى قلوب الناس.

كان فقيدنا الغالي رحمه الله طيّب القلب ونقيه ورقيق الشعور ومرهفه، وكان عذب الحديث واضح الفكر، صريح الكلام، يدعو إلى المحبة والوئام، صادق المودة، نافذ البصر والرؤية، زاهداً بالمناصب والشهرة، قومي الانتماء، إنساني النزعة، عزيز النفس وأبيها.

عرفت فيه سمو الأخلاق، ونزاهة السلوك، وإتقان الأداء، والتبتل على محراب الوطن بكل معاني الانتماء وسمو الوفاء، وهذه الصفات كافة جعلته محترم الرأي في جميع المواضع التي عمل فيها، ومحبوباً من الجميع بفضل تواضعه وإخلاصه وتجرده وإيمانه بالحق والحقيقة.

عاش فقيدنا الغالي عبر مسيرة حياته في عالم القيم والمثل، عالم الحق والخير والجمال، فجسد ذلك كله في سلوكاته وتصرفاته فهماً ونزوعاً وأداءً، وتبدى لعارفيه منسجماً مع مبادئه، وفياً لقيمه، جريئاً في قول الحق، حريصاً على الأكمل والأجمل والأبهى في عالمه، لأنه جمع بين العلم والفضيلة، مجسداً مقولة سقراط إن المعرفة أساس الفضيلة.

جبلته العطاء، وشيمته الوفاء، وهب عصارة فكره طلابه وزملاءه، ووهب مكتبته الخاصة الزاخرة بمختلف فنون المعرفة مكتبة الوطن «مكتبة الأسد»، ووهب المكتبة العربية المؤلفات القيمة إذ إنه أغناها بكتبه القيمة والرائدة تأليفاً وترجمة ومعاجم، وزينت مقالاته المجلات التربوية على نطاق الساحة القومية، وماذا عساي أن أعدد من نتاجه الفكري: مدارس علم النفس، أصول علم النفس، علم النفس التربوي، التعلم ونظرياته، اعرف نفسك، معالم التربية، التربية قديمها وحديثها، الإبداع وتربيته.

ولن أتمكن من الحديث عن الإنجازات الضخمة التي أغنى بها المكتبة العربية في ميادين علم النفس، والتربية، وإن لم يكن له إلا معجم علم النفس لكفاه فخراً في مسيرة حياته العلمية، ذلك لأن العمل المعجمي من أشق الأمور وأصعبها، ويعجز فريق العمل عن إنجازه، فكيف تأتى له وضع ما يزيد على ثمانية آلاف مصطلح في هذا الميدان باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية؟

وإن كنت أنسى فلا يمكنني أن أنسى آخر محاضرة حضرتها لفقيدنا الكبير في الندوة الثقافية النسائية بدمشق عام ٢٠٠٤، وكانت المحاضرة عن «المحبة في حياة البشر» وبدماثته المعهودة شكرني على حضور المحاضرة وقال مبتسماً: هل لديك وقت لحضور المحاضرات، أعانك الله على عملك، وكنت حينئذ وزيراً للثقافة فقلت له: إن العلم يؤتى إليه يا أستاذنا الجليل، والكسب لأي امرئ في حضور محاضراتك وارتشاف رحيق الحكمة من معينك، وسرّ أيما سرور عندما رويت له أبياتاً شعرية تتضمن معاني الحب لابن عربي إذ يقول:

أديـن بـدين الحـب أنّى توجهـت ركائبـه فالحـب ديـني وإيمـاني

وأبي ماضي إذ يقول:

لا تطلبنّ محبة من جاهل فالمرء ليس يحب حتى يفهما

كما يقول:

إن نفساً لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها

أنا بالحب قد تعرفت على نفسي وبالحب قد عرفت الله

وبدوي الجبل إذ يقول:

وما بنيت إلا على الحب أمة ولا عزَّ إلا بالحنان زعيمُ

هو الحب حتى يكرم العسر موسر ويأسى لأحزان الغني عديمُ

ولقد حلّق بجمهوره في محاضرته تلك إلى سماء المحبة، بأسلوب ساحر ولفظ رشيق وأنيق.

كثيرة تلك الفوائد التي زودنا بها فقيدنا الغالي، وسامية منظومة القيم التربوية التي ركّز عليها ومنها:

- أن العلم الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة هو سبيل نهضة الأمة.
- أن الحب بمنظومته الشاملة هو أهم حاجات البشرية وأسمى القيم التربوية التي ترتقي بالإنسان إلى مدارج الكمال والجمال والبهاء.
- أن العقل هو أفضل نعمة وهبها الله للإنسان على أن يوظف المرء هذا العقل في خدمة مجتمعه وأمته والإنسانية جمعاء.
- أن إتقان العمل هو الذي يجعل المواطن مقدراً ومعتبراً في منظومة القيم كافة وعلى الصعد كافة.
- أن الانتماء للوطن هو أجل واجب على كل مواطن التحلي به سلوكاً وأداءً.
- أن مهنة التدريس ثوب أبيض لا أنقى ولا أصفى، وعلى صاحبها أن يحافظ على نقاء هذا الثوب، ومن وضع نفسه مواضع التهم فلا يلومَنَّ من أساء به الظن.
- أن تربية الإبداع هي سبيل التقدم لأن المبدعين هم الثروة الحقيقية للأمة.

تلك هي باقة من القيم التي نبه عليها ومارسها «المحبة- إتقان العمل- تربية الإبداع- الشغف بالقراءة- التسلح بالعلم- الانتماء للوطن».

وما أجل وما أسمى تلك الرسائل التي وجهها إلى أبنائه ومن خلالهم إلى الجيل إذ يقول في رسالته إلى ابنه بشر: لو سألتني عن أهم صفة من صفات هذا العصر الذي تعيش فيه يا بني لقلت لك غير متردد: إنه عصر العمل، ولو سألتني عن أهم مكتشفات هذا القرن الذي شهد مولدك وأرجو ألا يشهد موتك لقلت لك: إنها قيمة العمل، قيمته في بناء حياة الفرد وقيمته في بناء المجتمع، وقيمته في بناء الإنسانية، ولعلك ملاحظ أننا في زمان لم تعد للوراثة فيه قيمة، وأعني بالوراثة الأملاك أو وراثة الثروة، أو وراثة المصنع، أوراثة اللقب أو غير ذلك من أشكال الوراثة الاجتماعية. إن قيمة الإنسان في عصرنا هذا فيما يحسن عمله».

ويتابع قائلاً: دعني أكشف لك سراً خطيراً سراً طالما بحث الإنسان عنه بعيداً وهو في متناول يده وأعني به سر السعادة: السعادة أيها الحبيب في القيام بالعمل الذي تحب على الوجه الأمثل وبالجهد اللازم، حذار أن تظن أن السعادة تطرق باب الكسلان أو تأتي عن طريق الأعمال السهلة.

إذا أردت السعادة الحقيقية وجب عليك أن تجتهد في القيام بعمل محبب وعلى وجه صحيح، وبذلك فقط تكون فناناً وتكون سعيداً وتكون قبل كل هذا وبعده مواطناً صالحاً وإنساناً خلوقاً».

**أيها الحفل الكريم:**

إذا كان يقال: لا يعرف الفضل إلا ذووه، فإن السيد الرئيس بشار الأسد في ذروة ذوي الفضل وما كان ليمنح الأستاذ الدكتور فاخر عاقل وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة إلا تقديراً من سيادته لفضل العاقل وعلمه وثقافته وإخلاصه وتعلقه بوطنه.

رحم الله فقيدنا الغالي المفكر الكبير الأستاذ الدكتور فاخر عاقل الرحمة الواسعة، سعة ما أعطاه لأمته من أفانين العطاء، وجعل الجنة مثواه، وتعازينا القلبية الحارة لأخوته وابنه وابنتيه وآله، ووهب الله الصبر أهله وذويه ومحبيه وعارفيه، ولئن غاب عنا جسماً وبعد مقاماً، إنه حي في عقولنا وقلوبنا ووجداناتنا بآثاره القيمة وبسيرته المناقبية العطرة، وها نحن أولاء نردد:

يضوعُ عبير المسك إن ذكر اسمه فنذكره والطيب يعشقه القلب

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## الدكتور زهير البابا
## العضو العامل في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في دمشق عام ١٩٢٤، وحصل على الشهادة الثانوية من التجهيز الأولى بدمشق عام ١٩٤٠، وعلى الإجازة في الصيدلة والكيمياء من المعهد الطبي العربي بالجامعة السورية عام ١٩٤٥، ونال شهادة الدكتوراه في العلوم الصيدلية (اختصاص عقاقير) من جامعة بروكسل ببلجيكا عام ١٩٤٨.

عمل مدرساً في كلية الصيدلة بجامعة دمشق عام ١٩٤٩، وترقى إلى مرتبة الأستاذية عام ١٩٦٢، وأصبح عميداً لكلية الصيدلة (١٩٧٠-١٩٧٣)، ودرّس في جامعة الرياض من ١٩٦٣-١٩٦٨، وفي معهد التراث بجامعة حلب منذ عام ١٩٨١، وانتخبه مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق عضواً عاملاً فيه عام ١٩٨٥، وكان عضواً في عدة لجان في المجمع (لجنة النظر في أعمال أعضاء المجمع المؤسسين في العقد الأول من تأسيسه، لجنة مصطلحات العلوم الرياضية والمعلوماتية والفيزيائية والكيميائية، لجنة المخطوطات وإحياء التراث، لجنة مصطلحات العلوم الطبيعية وتقاناتها، لجنة المجلة والمطبوعات، لجنة المعجمات اللغوية، لجنة تنسيق المصطلحات وتوحيدها وألفاظ الحضارة، لجنة مصطلحات الأحياء الحيوانية، لجنة مصطلحات الأحياء النباتية، لجنة مصطلحات العلوم الزراعية، لجنة مصطلحات العلوم الجيولوجية).

من مؤلفاته علم العقاقير، علم تشخيص العقاقير، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة.

ومن المخطوطات التي حققها: أقرباذين القلانسي، دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية لابن سينا، أقرباذين ابن التلميذ ورسالته في العضد، المقالة (٢٨) من كتاب التصريف للزهراوي، كتاب شاناق في السموم والترياق، المقالة الفاضلية في التحرر من السموم.

توفي في دمشق ودفن فيها عام ٢٠١١.

## كلمة في حفل تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور زهير البابا
## في كلية الصيدلة بجامعة دمشق يوم الخميس في ٢٠١١/١٠/١٣م

**أيها الحفل الكريم:**

**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:**

صعبة هي مواقف الرثاء والتأبين على المرء؛ وما كنت أحسبني يوماً أقف هذا الموقف في تأبين علم من أعلام الفكر والثقافة في وطننا، علم إذا ما ذكر فتمثل الذكرى على منصة من المناقب الرفيعة والأخلاق الفاضلة السامية والعلم الأصيل، ذلكم هو المجمعي المتميز الأستاذ الدكتور زهير البابا رحمه الله، والذي يعد من جيل المكابدة الحق والمعاناة المرة، الجيل الذي وطّد نفسه ليكون كالمصباح بعد أن امتلأ زيتاً معرفياً.

لقد كانت حياته حافلة بالعطاء على مختلف المستويات تدريساً وإدارة وبحثاً وترجمة وتأليفاً وتحقيقاً، وكان يعمل بصمت في منأى عن التبجح والظهور، وتلك لعمري هي سمة العلماء الأفذاذ، فكان شموخاً في تواضعه، ومن اتضع ارتفع، فكان مثالاً للعالم المتواضع والباحث المدقق، يزين ذلك كله عفة اللسان وصفاء السريرة وسمو الأخلاق، وصلابة الانتماء.

مارس التدريس في كلية الصيدلة بجامعة دمشق وفي جامعة الرياض وفي معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، وتسلّم عمادة كلية الصيدلة بجامعة دمشق ورئاسة قسم العقاقير بجامعة الرياض.

وإلى جانب عمله التدريسي والإداري كان رحمه الله عضواً في عدة جمعيات منها جمعية تاريخ العلوم السورية، واللجنة الوطنية لتاريخ العلوم في سورية، وجمعية تاريخ الطب في فرنسا، إلى جانب عضويته في مجمع اللغة العربية.

كان مجلياً في العلوم الصيدلية «اختصاص عقاقير» حيث ألف مجموعة من الكتب

الجامعية «علم العقاقير في جزأين، وعلم تشخيص العقاقير، وآداب الصيدلة»، وكان قد ترجم عدة مؤلفات تبحث في علمي العقاقير والنباتات الطبية قبل أن يقوم بتأليف أول كتاب يظهر باللغة العربية في علم العقاقير وتشخيصها المجهري والكيماوي، وقد صدر الكتاب في جزأين أولهما في الدروس النظرية وثانيهما في الدروس العملية.

ولم يقتصر صنيعه على معطيات هذه العلوم في عصرنا الحاضر، وإنما راح يبحث في تراث أمته منقباً ومحققاً، فحقق عدداً من المخطوطات العلمية في ميادين تخصصه كان قد ألفها بعض من علمائنا العرب في حضارتنا العربية الإسلامية من أمثال ابن سينا والزهراوي وابن التلميذ والقلانسي، وكانت للدراسات العلمية التراثية مكانة خاصة في نفس المرحوم الدكتور البابا.

فمن يلق نظرة على البحوث التي قدمها إلى المؤتمرات العلمية، أو التي نشرت في المجلات العلمية يجد أن نصيب التراث منها في تاريخ العلوم عند العرب كان كبيراً، ومن هذه البحوث «الأقرباذينات أو دساتير الأدوية العربية، مصادر الأدوية المفردة في الطب العربي، الفحوص المخبرية في المؤلفات الطبية العربية، علم السموم في الطب العربي، ابن سينا وإسهامه في وضع أسس علم المياه، تقدم العلوم الصيدلية في بلاد الأندلس، كشف الغطاء عن أحد مؤلفات ابن سينا (دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية)، الطب العربي قبل الفتح الإسلامي، التراث الطبي العربي في مكتبات الشرق والغرب، الصيدلاني أبو القاسم الزهراوي، تأثير اللغة السريانية في المصطلحات الطبية العربية، علم الجنين بين اليونان والعرب...الخ».

ومعذرة فلست الآن في مجال الحصر، وإنما هي إشارات فقط إلى عدد من البحوث التي جمع فيها بين الأصالة والمعاصرة لإيمانه أن ثمة كنوزاً في تراث أمتنا لابد من تعرفها؛ وهذا ما آمن به أستاذنا الراحل المجمعي المرحوم الدكتور عبد الكريم اليافي عندما يقول عن تراث أمته:

منه إشراقنا ولولا الجذور الخضر ما هزت الصبا أغصانا

وما دعا إليه المجمعي بدوي الجبل عندما يقول:

وإذا رفت الغصون اخضراراً فالذي أبدع الغصون الجذور

أما عضويته في مجمع اللغة العربية بدمشق فقد كانت مكللة بالأعمال العلمية المتنوعة حيث كان عضواً في عدة لجان في المجمع، أسهم فيها إسهاماً فعّالاً. ومن هذه اللجان: لجنة

مصطلحات العلوم الرياضية والمعلوماتية والفيزيائية والكيميائية، ولجنة المخطوطات وإحياء التراث، ولجنة مصطلحات العلوم الطبيعية والزراعية، ولجنة المعجمات اللغوية، ولجنة تنسيق المصطلحات وتوحيدها وألفاظ الحضارة، ولجنة مصطلحات الأحياء الحيوانية، ولجنة مصطلحات الأحياء النباتية، ولجنة مصطلحات العلوم الزراعية، ولجنة مصطلحات العلوم الجيولوجية، ولجنة إنجاز أعمال مؤسسي المجمع في العقد الأول من تأسيسه.

ولكم أن تتصوروا أيتها السيدات، أيها السادة، ضخامة الأعباء التي كان يضطلع بها الأستاذ الدكتور زهير البابا في أعمال هذه اللجان في مجمع اللغة العربية، وأن تتصوروا في الوقت نفسه مدى الخسارة الكبيرة من جرّاء فقدانه، ولكن تلك هي إرادة الله ومشيئته، ولا راد لإرادته ولا تمرد على مشيئته، وليس لنا إلا التحلي بالصبر تجاه هذا المصاب الذي ألم بالثقافة والعلم نتيجة لأفول نجم وغياب فارس فذ من فرسان العلم والثقافة في عصر كثر فيه أدعياء العلم والثقافة. وشتان بين مدَّعٍ مغرور، وعالم متواضع. ذاك مقتله غروره وادعاؤه، وهذا ثروته علمه الغزير وتواضعه الجم وسيرته العطرة، ورحم الله شاعرنا العربي إذ يقول:

إذا زاد علم المرء قلَّ ادعاؤه ... وإن قلَّ يوماً علمُه ضلَّ وادّعى

كذا الغصنُ أيامَ الثمارِ تنالُه ... وإن صار معدومَ الثمارِ ترفعا

**أيها الحفل الكريم:**

لقد عرفت الأستاذ الفاضل المرحوم الدكتور البابا في ثمانينيات القرن الماضي، حيث كنت بمعيته في عضوية لجان لتقويم الشهادات العلمية في مجلس التعليم العالي، فعرفت في شخصه النبيل نزاهة العالم، وموضوعيته، وعدالته، وحرصه الشديد على المستوى العلمي للمرشح الذي سيعيّن عضو هيئة تدريسية في الجامعات السورية، وكنت أكبر فيه هذه المزايا التي كنت أفتقدها لدى بعضهم، وطالما قلت له آنذاك: بارك الله لوطنك في مواقفك المشرفة التي لا تروم إلا الحق والحق وحده، ولا تخشى في قول الحق لومة لائم مهما تك الوساطات والتدخلات، وبأمثالك تبنى الأوطان، وتصلب أسس البنيان.

وعرفت مزايا أخرى في فقيدنا الغالي في النصف الأول من عقد التسعينيات عندما كلفته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) إنجاز بحث في تاريخ العلوم عند العرب

لصالحها. وكنت آنئذ مديراً لقطاع التربية في المنظمة، وطالما كنا في المنظمة نتابع الباحثين على الصعيد العربي لإنجاز بحوثهم في المواعيد المحددة لها، وطالما كانوا يتلكؤون في إنجازها في الوقت الذي كنا في الإدارة نعاني الاحتراق النفسي نتيجة لهذا التأخير وذلك التلكؤ والتراخي، ولكن فقيدنا الغالي أنجز بحثه في الموعد المحدد، وتلك هي سمة من سمات المؤمنين الذين إذا وعدوا وفوا، فقد كان وفياً لرسالته حريصاً أيما حرص على الإنجاز والإتقان معاً، وقد شاركه في صنيعه هذا أستاذنا المرحوم الدكتور عبد الله عبد الدايم، فقد كان مثالاً في إيفائه بمواعيده المحددة، وصدق أمير الشعراء شوقي إذ يقول:

ارفــع لنفســك بعــد موتــك ذكرهــا  فالــذكر للإنســان عمــرٌ ثــان

طوبى لك أيها الراحل العلم سيرتك العلمية المتميزة والمناقبية الرفيعة وليرحمك الله الرحمة الواسعة سعة ما قدمته لأمتك من أفانين المعرفة وجزيل العطاء، وأقدّم التعازي باسم مجمع اللغة العربية لأبنائك الكرام الدكتور مازن والدكتورة خلود ولآلك جميعاً وذويك وأصدقائك وطلابك وجامعتك، داعياً الله أن يسكنك فسيح جناته، وأن يلهمنا جميعاً الصبر والسلوان بسبب هذا الغياب المؤلم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## الدكتور عبد الكريم الأشتر
## عضو الشرف في مجمع اللغة العربية بدمشق

ولد في مدينة حلب عام ١٩٢٩، وفيها أتم المرحلة الابتدائية عام ١٩٤٢، ثم التحق بالتجهيز ونال شهادة الدراسة المتوسطة عام ١٩٤٦، فعمل معلماً وكيلاً في ريف حلب، وقضى في عمله هذا سنة دراسية، ونال شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) عام ١٩٤٨، فانتسب إلى كلية الآداب بجامعة دمشق، وكان خلال دراسته الجامعية يدرّس في بعض المدارس الثانوية بدمشق (١٩٤٩-١٩٥١).

عيّن مدرساً بعد نيله الإجازة الجامعية في ثانوية المعري ١٩٥٢-١٩٥٣. وأعلنت وزارة المعارف أواخر عام ١٩٥٦ عن مسابقة لإيفاد بعض المدرسين إلى معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة (معهد الدراسات والبحوث العربية اليوم)، وكان الناجح الثاني فيها فأوفد لتحضير الماجستير في الأدب العربي الحديث، وتأثر أيما تأثر بأستاذه الدكتور محمد مندور في المعهد الذي أشرف على رسالته في الماجستير عن فنون النثر المهجري، وقد نال هذه الشهادة عام ١٩٦٠، ثم التحق بجامعة عين شمس لتحضير الدكتوراه عن شاعر آل البيت دعبل بن علي الخزاعي بإشراف الأستاذ الدكتور مهدي علام، ونال هذه الشهادة عام ١٩٦٢ بدرجة الشرف الأولى، وقد عمل في أثناء تحضير الدكتوراه في معهد الدراسات والبحوث العربية.

وبعد عودته إلى سورية عيّن مدرساً في كلية الآداب بجامعة دمشق عام ١٩٦٣، وتولى رئاسة قسم اللغة العربية عام ١٩٦٨ خلفاً لأستاذه سعيد الأفغاني، ثم أعير إلى جامعة وهران بالجزائر فقضى فيها أربع سنوات (١٩٦٩- ١٩٧٣)، عاد بعدها ليدرس في جامعة دمشق واللاذقية وبيروت، ثم أعير إلى جامعة العين في الإمارات العربية المتحدة مطلع العام الدراسي ١٩٧٩-١٩٨٠، فقضى فيها سنتين، عاد بعدها إلى جامعة دمشق فبقي فيها إلى سنة ١٩٨٨، فقدم استقالته، وعاد إلى حلب حيث عمل في جامعتها إلى نهاية سنة ٢٠٠٣.

انتخبه مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق عضواً مراسلاً عام ١٩٩٢، كما انتخبه عضو شرف فيه وصدر المرسوم الجمهوري بتسميته عضو شرف عام ٢٠١٠، وشارك في نشاط المجمع محاضراً في ندواته ومؤتمراته وكاتباً في مجلته، كما شارك في الكتابة في جريدتي «تشرين والبعث».

من مؤلفاته فنون النثر في المهجر، التعريف بالنثر العربي الحديث وفنونه، معالم في النقد

العربي الحديث، نصوص مختارة من النثر العربي الحديث، غروب الأندلس وشجرة الدر، دعبل بن علي الخزاعي، كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، دراسات في أدب النكبة، الملتقى، الصدى، المقتطف، مسامرات نقدية، نصوص مختارة من الأدب العباسي، أوراق مهجرية، فواصل صغيرة، ألوان، في ديوان العرب، أحاديث في الكتب والكتاب، العربية في مواجهة المخاطر.

وشارك في تأليف عدد من الكتب المدرسية، وله مقالات وبحوث في عدد من المجلات والصحف.

توفي في حلب عام ٢٠١١ ودفن فيها.

## كلمة في حفل تأبين الأستاذ الدكتور المرحوم عبد الكريم الأشتر
## مجمع اللغة العربية بدمشق ٢٠١١/١٢/١٤

**أيها الحفل الكريم**: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لكم أحس بالصعوبة وأنا أقف هذا الموقف في حفل تأبين علم من أعلام الحكمة والثقافة والأدب في أمتنا لعجزي عن إيفائه حقه تجاه ما يتسم به من مزايا ومناقب، إنه علم من أكبر الهامات الأكاديمية العلمية والأدبية، ذلكم هو الأديب الكبير الراحل الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله.

لم تتح لي الظروف لقاء فقيدنا إلا في ثمانينيات القرن الماضي، وكنت سعيداً أيما سعادة بسيرته العطرة وذكره الطيّب على ألسنة المدرسين والطلاب في جامعة وهران بالجزائر حيث التحقتُ بها مدرساً عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف، وكان الراحل الكبير قد درّس فيها من قبلُ أربع سنوات قبل التحاقي بها.

ولكم هو جميل ورائع أن يكون أحدنا سفيراً لبلاده أنّى حلَّ وحيثما ارتحل، فيذكر الآخرون وطنه بكل إكبار وتقدير واحترام بفضل سلوكه الحميد وعقله الرشيد، ويقدّمُ النموذج الحيّ والقدوة الصالحة في تصرفاته وسائر حركاته، هاجسه خدمة الرسالة التي وقف نفسه لها، وغايتُه تأدية الأمانة التي كلفها، ولقد كان الدكتور الأشتر رحمه الله ذلك السفير المجلي المتميز لوطنه في حلّه وترحاله، خدمه بكل نزاهة وإخلاص وتجرد.

كان يتسم رحمه الله بحسه النقدي وحصافة الرأي منذ أن كان طالباً في الدراسات العليا، فها هوذا يسبغ على كل أستاذ درّسه صفة تلمّسها في شخصيته من خلال تدريسه إذ يقول : «كنا نعشق في كل أستاذ صفته: في أحمد أمين الوضوح والعمق، وفي أمين الخولي القدرة على الإثارة والآراء المتجددة، وفي عبد الرحمن عزام نقاء عروبته ورعايته للطلبة العرب. ولكننا كنا نلتقي جميعاً هذا اللقاء العفوي من خلال هذه الشخصية الآسرة التي لا يكاد يفلت من أسرها أحد شخصية طه حسين التي كان لها في عقولنا وقلوبنا هذا الحضور الدائم الذي لا يغيب، والمكانة الرفيعة التي لا تتأخر، والعطاء الخصب الذي لا يدانيه عطاء، إن وجوده المعنوي كان يسبق حضوره المادي، وهو من أوائل المفكرين العرب الذين ربطوا بين حرية الأديب وحرية الأدب».

وبعد أن التحق بالتدريس الجامعي كان رحمه الله مدرساً مجلياً، وباحثاً أصيلاً، ومؤلفاً متميزاً، وكاتباً قديراً، وإعلامياً كفياً ومؤثراً في العقول والقلوب والضمائر. مارس التدريس في مختلف المراحل التعليمية، كما مارس التأليف والكتابة الصحفية، والمشاركةَ في الندوات الإذاعية والتلفزية والإشرافَ على رسائل الدراسات العليا ومناقشةَ الرسائل الجامعية، فكانت حياته كلها حافلة بالعطاء وزاخرة بالخصب والنماء.

وتعد كتبه وبحوثه ومقالاته كنوزاً في حياتنا الثقافية، ينهل منها طلبة العلم والباحثون المهتمون بأصالة الفكر وبناء الأمة متعة الروح والعقل معاً، يشعرك بها في استعماله لغة تأسرك بحلاوتها وعذوبتها ورقتها بأسلوب ساحر يدفعك إلى التعلق بالموضوع الذي يتناوله دون ملل.

وماذا عساي أن أعدد من مؤلفات فقيدنا التي أجدني عاجزاً عن تعدادها وحصرها ومنها: التسهيل في دراسة الأدب الحديث، النثر المهجري وفنونه، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، نصوص مختارة من الأدب العباسي، غروب الأندلس وشجرة الدر، نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث، معالم في النقد العربي الحديث، دراسات في أدب النكبة، العربية في مواجهة المخاطر...الخ.

وهكذا ترون أيتها السيدات، أيها السادة أن المشهد الثقافي فقد علماً كبيراً وعموداً من أعمدة الثقافة العربية، وشعلة أنارت البصائر على مدى ستين عاماً. ولم يقف إشعاعه عند حدود وطنه الصغير، بل امتد بعيداً حتى عم أكثر بقاع الوطن الكبير في الجزائر والإمارات ولبنان ومصر والكويت.

**أيها الحفل الكريم:**

بعد عودة كل منا إلى جامعتنا الأم، جامعة دمشق، كنت ألتقي الدكتور الأشتر في كلية الآداب بالجامعة، وطالما بحثنا في شؤوننا الجامعية، ثم التفتنا معاً إلى كتابة المقالة الصحفية متمثلة في «حديث الصباح» بجريدة البعث. وشكوت إليه مرة الضيق الذي أكابده من جرّاء كتابة الحديث وتقديمه في موعد محدد، وكنت آنئذ في السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق، ولم يكن لديَّ الوقت الكافي للتفرغ إلى كتابة الأحاديث، فابتسم رحمه الله ابتسامته العذبة المعهودة، وقال لي: أخي محمود أحس بما تشعر به، ولكنني لا أوافقك

على الرأي في التخلي عن كتابة الحديث، وأقول لك بكل صراحة لقد راودتني فكرة التخلي كما تراودك حالياً، ولكنني عدلت عنها لإيماني بأن الكلمة مسؤولية وأمانة، وأن ثمة خيراً في المقالة الصحفية، وأننا في أحاديثنا الصباحية كما في ندواتنا التلفزية نؤدي رسالة، وإذا تخلينا عن واجب الأداء فهذا يعني أننا نسير في الطريق الخطأ، وأربأ بك أن تسير فيه. والحق أقول لقد كانت كلماته بلسماً ناجعاً ودواء شافياً لما كنت أكابده، وتابعت كتابة «حديث الصباح» في الجريدة.

وتكررت لقاءاتنا في مناسبات متعددة، يبث كل منا إلى أخيه شؤونه وشجونه، وشاركنا معاً في ندوات مجمع اللغة العربية بدمشق ومؤتمراته، وفي الندوات التي كانت تقيمها وزارة الثقافة لتكريم بعض الأدباء الراحلين. ثم صدر القرار الجمهوري المتضمن تشكيل اللجنة العليا للتمكين للغة العربية، وكان عضواً فيها، وأُوكل إلى اللجنة وضعُ خطةِ عمل وطنية للتمكين ومتابعةُ التنفيذ على أن تَعقِد اللجنة اجتماعات دورية لهذه الغاية، وتقدمَ تقاريرها الشهرية إلى السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيّد رئيس الجمهورية راعيةِ هذا الحفل. واعتذر الأستاذ الدكتور الأشتر رحمه الله عن عدم تمكنه من حضور هذه الاجتماعات في دمشق لوضعه الصحي، فاقترحتُ باعتباري رئيساً للجنة أن نرسل إليه التقاريرَ بوساطة الناسوخ (الفاكس) فيطلعَ عليها، ويزودَنا بملاحظاته وآرائه التي لا يمكن للجنة الاستغناءُ عنها بأي صورة من الصور، ووافقت السيدة نائب الرئيس على المقترح، وسارت الأمور على هذا النحو، فكنا — أعضاء اللجنة- ننتظر وصول النسائخ منه لنقرأها ونفيدَ منها في عملنا، إلا أنه حاول الاعتذار للمرة الثانية، وأرسل نسيخة إليَّ طالباً رفعها إلى السيدة نائب رئيس الجمهورية، ويقول فيها: «وبعدُ فإني أجدني اليوم يا سيدتي، ونحن في الطريق إلى إتمام العام الثالث من عمر اللجنة- وأكون عندها بلغت الثمانين- مدعواً إلى تسليم الأمانة، ليتاح تسميةُ البديل، شاكراً للسيّد الرئيس ثقتَه الغاليةَ، ولك يا سيدتي أجملُ ما يحفظ الإنسان للإنسان من جمال الصلة وشكرِها أيضاً. أسأل الله حسن الخاتمة، وأن يهيئ للجنة من بعدُ سبل التوفيق فيما تتولى أمانته، وأن يلازمها فيه الإيمانُ بالحرص على رعاية أسس التمكين». إلا أن الاعتذار لم يقبل بسبب الحرص العميق على استمراريته في اللجنة مهما تكُ ظروفه بغية الإفادة من ملاحظاته وآرائه القيمة.

**أيها الحفل الكريم:**

يقول شاعرنا العربي:

عليـــك بـــالنفس فاســـتكمل فضـــائلها  فأنـــت بـــالنفس لا بالجســـم إنســـان

وفي ضوء ذلك أشهد أن نفسَ فقيدنا كانت عاليةً وعاليةً جداً، فإذا ذكر سمو النفس ذكر فقيدنا الغالي، وإذا ذكر التهذيب الجم ذكر فقيدنا الغالي، ولقد لمستم هذا التهذيب في الرسالة السابقة، وتلمسونه في جميع جوانب حياته، فها هو ذا يرسل رسالة إلى أمينة سر لجنة التمكين يستهلها قائلاً: ابنتي الفاضلة الآنسة ريام: صباح الخير، أكون شاكراً لو تكرمت بنقل شكري العميق للسيدة الدكتورة نجاح العطار نائب السيد رئيس الجمهورية على دعوتيها الكريمتين الغاليتين وعجزي عن تلبيتهما، ودمت لكل جميل طيّب».

وما من رسالة أرسلها إلى اللجنة إلا ويحيي أعضاءها ويشكرُهم ويدعو لهم بالخير والتوفيق، وما من كتاب ألفَّه إلا وأرسل إليَّ نسخة منه هدية وقد توّج الإهداء بعبارات المودة والتحية والذكرى الطيبة.

تلك هي بعض سمات فقيدنا الراحل، ومع أننا نستخدم كلمة «راحل» إلا أنه حيٌّ في العقول والنفوس والضمائر كما أن الخالدين لا يموتون، إنهم يبدؤون خلودهم ساعة يقال إنهم ماتوا، ذلك أنهم أصبحوا بالذي خلّفوا من أثر، وأبدعوا من أدب جزءاً منا ومن تاريخنا وإرثنا، ألم يقل شاعرنا العربي:

مـــوت النقـــي حيـــاة لا نفـــاد لهـــا  قـــد مـــات قـــوم وهـــم في النـــاس أحيـــاءُ

ولله در أمير الشعراء شوقي إذ يقول:

المجـــد والشـــرف الرفيـــع صـــحيفةٌ  جعلـــت لهـــا الأخـــلاقُ كـــالعنوان

وجـــدانك الحـــيُّ المقـــيمُ علـــى المـــدى  ولـــربّ حـــيٍّ ميّـــتِ الوجـــدان

ولقد تجلّى هذا الوجدان الحيّ المقيم على المدى في جوانب حياة فقيدنا كلها، وإذا كان شاعرنا العربي يقول:

قـــد عرفنـــاك باختيـــارك مُـــذ كـــا  ن دلـــيلاً علـــى اللبيـــب اختيـــاره

فإننا سنأخذ مثالاً على مشاعره الإنسانية المرهفة من اختياره مواقف إنسانية في الشعر

والحياة معاً، وها هو ذا يتخيّر ثلاث قصائد لشعراء شاعت على ألسنة الناس قصيدة واحدة من شعرهم طغت على ما قالوه جميعاً. ومن أصحاب الواحدة أي القصيدة الواحدة التي شاعت على الألسنة دون غيرها الشاعرُ الإربلي البحراني في قصيدته الهائية على أنها مثال للفجيعة بالإنسان:

ربّ دار بالغضا طال بلاها عكف الركب عليها فبكاها

كان لي فيها زمان وانقضى فسقى الله زماني وسقاها!

ومن أصحاب الواحدة الشاعر العراقي ابن زُريق البغدادي، وقد تخيّر قصيدته الهائية أيضاً على أنها مثال للفجيعة بالحياة، إذ يصور فيها تجربة الغربة والحنين، وهي في معنى من معانيها تحمل الخيبة التي تتعدد صورها في حياة الناس، ويقول فيها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

جاوزت في لومه حداً أضرَّ به من حيث قدرت أن اللوم ينفعه

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً من عنفه فهو مضنى القلب

ومن أصحاب الواحدة الشاعرُ الأندلسيُ أبو البقاء الرندي، وقد تخيّر قصيدته:

لكلّ شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرَّ بطيب العيش إنسان

على أنها مثال على الفجيعة بالوطن عندما تفككت ممالكُ الأندلس وسقطت معظم حواضرها بلنسية، مُرسية، قرطبة، اشبيلية:

قواعد كنَّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركانُ

وينادي الشاعر فيها بأعلى صوته:

ألا نفوسٌ أبيّات لها هممٌ أما على الخير أنصار وأعوان؟

لمثل هذا يذوب القلبُ من إن كان في القلب إسلامٌ

وما اختيار فقيدِنا الغالي لكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وإعادةُ نشره بعد أن أعاد النظر فيه إلا لإيمانه بالمقاومة إذ يقول: إن غاية ما أبتغيه من نشر الكتاب مرة أخرى في طبعته الكاملة هذه بعد أن أعدت النظر فيه إعادة شاملة، أن تقع الإفادة منه في هذه الأيام الحرجة

التي نواجه فيها غزواً استيطانياً جديداً يذكّر بغزو الإفرنج أيام حروب الفرنجة في عصر أسامة، فيعين في نشر نصوصه على تقويةِ روح المقاومة في نفوس الناس على أنها الطريق إلى عزة الأمة، وبثِّ الثقة والاعتبارِ بما نجم لنا تحقيقُه تلك الأيام واستخلاصِ الدروس منها، فالكتاب في جملته يعد فوق مزاياه الفنية وثيقة حية قل نظيرها في رصد إحساسنا بالتفوق الحضاري العام في القرون الوسطى».

وكان يرى أن في الاطلاع على كتب الرحلة في القديم والحديث ثقافةً متصلة بالعصر الذي نحن فيه، لم يصغها الفكر وحده، بل صاغتها النفس المنفعلة بمجموعها حِسًّا وفكراً ووجداناً وحركة حية، فهذه تجارب تاريخية إنسانية لم يبدعها الخيال، ولكن صاغتها حقائق المشاهدة والانفعال الحيّ فيها.

وفي وقفاته النقدية الأدبية على أعمال بعض النقاد العرب المعاصرين من أمثال الدكتور أحمد كمال زكي، والدكتور محمد زكي العشماوي، ورجاء النقاش، والدكتور عبد الملك مرتاض، كان يرى أن في هذه الوقفات تقريباً للقارئ العربي وطلاب الجامعات بخاصة من مذاهب الفكر والفن وأعلامهما في الغرب، وما يشكو منه إنسان العصر من غلبة المادة على الروح ومن الغربة وضعف الإيمان بالخالق والتمرد عليه وشيوعِ النزوع إلى العبثية وافتقادِ الأمن.

ويحسن بنا في هذه المناسبة أن نطلع على جانب من درر أفكاره النيّرة في قضايانا الثقافية لنتبين رجاحةَ الرأي وسدادَه بعد أن تعرفنا رهافةَ الحس ويقظةَ الوجدان.

أما آراؤه التربوية فقد اتسمت بالحكمة ومواكبة الاتجاهات التربوية الحديثة فهاهو ذا يقول: إن رسالتنا الجامعية الحقيقية هي في تكوينِ الفرد وتنميةِ شخصيته الفكرية وإيقاظِ وعيه ودفعهِ إلى اقتحام المجهول، والكشفِ عن الآفاق المعرفية الجديدة وإبداعِ الحلول للمشكلات الماثلة فيها. ونحن في جامعاتنا العربية نتوجه أكثر ما نتوجه إلى خطاب الذاكرة لا إلى خطاب العقل، ونرمي إلى تحفيظ الحقائق لا إلى تركيبها أو إبداعها.

إن جوهر العمل التربوي هو تنشيط الحركة الذهنية. ولقد علمتني الحياة أن أغنى الغنى غنى النفس، وأخصبَ الخصب خصبُ التكوين ومواتاةُ الطبع، وعلمتني أن أساس النجاح في عملنا التربوي يقوم على تقليص المسافة بيننا وبين الطالب، فبغير الإحساس بعمق الصلة بيننا وبينه،

صلةِ الود والتقدير المتبادل، تصبح العملية التربوية جافة، ويغيب فيها الجانب الإنساني الحي».

وجميل جداً موقفه من التراث والمعاصرة، فقد دعا رحمه الله إلى فهم التراث وفحصه والإفادة من كنوزه المعرفية والجمالية في خدمة الحاضر، فالتراث كما يرى في كتابه «فواصل صغيرة في قضايا الفكر والثقافة العربية» صخرة مكينة يمكن أن نجعلها عقبة في الطريق إلى المستقبل، ويمكن أن نبني عليها بيتنا الحديث: والمطلوب أن نكون أمناء وأحراراً في وقت واحد، أمناء على التراث نحفظه ونفهمه ونقدره ونغار عليه، ولا ننقطع عنه، وأحراراً لا نتعبده ولا ننقطع إليه.

ولكم يذكرني موقفه هذا من التراث بموقف أستاذه وأستاذي الدكتور المجمعي أمجد الطرابلسي رحمه الله إذ يقول: «السلف لا ريب موضع احترامنا وآثارهم موضع اعتزازنا، وويل لأمة لا تطبع أبناءها على هذا الاحترام، ولا تعوّدهم هذا الاعتزاز، ولكن احترامنا السلف يجب أن يكون احترام الأحرار، واعتزازنا بآثارهم يجب أن يكون اعتزاز الأعزة، فإذا انقلب الاحترام تعفيراً للجباه، أو غدا الاعتزاز جثواً على الركب كان الشلل فالجمود فالموت».

أما الحداثة في نظره فهي المعاصرة، وهي قبول العصر والتفاعل معه، والقدرة على اختيارِ طريقنا منه والدخولِ بأنفسنا وتسجيلِ هويتنا الحضارية فيه، وهي ما لا يستطيعه الغرباء عن العصر والمنقطعون عنه إلى الماضي، ولا الغرباء عن أنفسهم الذين انقطعوا عن أصولهم، فهم جميعاً غرباء يقفون على خط واحد، وإن وقفوا في طرفين متقابلين.

أما موقفه من العولمة فيتمثل في قوله: «علينا ألا نقصّر في دراسة منجزات العصر في كل الميادين، وألا نقصّر في تعلم اللغات التي تدنينا منها، والانفتاحِ على حقائق المعرفة الإنسانية في العلوم كافة، ودراسةِ ما نملكه في ضوئها وتقويمِه في غير تعبد ولا تصلب ولا خوف ولا إحساس بالنقص، فالمعرفة حق لكل البشر إذا استطاعوا امتلاكها، ثم إن الحضارات الضعيفة حين تنغلق على نفسها، وتحتر ثقافتها الخاصة، وتقيم من حولها الأسوار بدعوى الحفاظ على نفسها تؤتى من مأمنها ويقتلها ضعفها، وليس من بديل أمامها إلا أن تغرِسَ أقدامها في تربة ثقافتها، وتفتح منافذها لرياح الثقافات الأخرى».

**أيها الحفل الكريم:**

إذا كنا قدمنا باقة من اختياراته في تسليط الأضواء على بعض المواقف الإنسانية والفكرية

فحري بنا أن نقدم باقة من آرائه العملية في مجال التمكين للغة العربية مادامت الكلمة هي كلمة لجنة التمكين.

لقد كان فقيدنا متألماً أشد الألم من واقع الحال اللغوي في أقطارنا العربية ولطالما شكا من سوء هذا الواقع، فلنستمع إليه يقول: «إن الأمة تعاني في أقطارها المختلفة من زحف العاميات مفردات وأنساقاً على التعبير الشفهي والكتابي في مراكز الحياة الإدارية والوظيفية وصولاً إلى الخطاب نفسه، حتى أصبحنا نشهد اليوم من طغيان العاميات في أجهزة الإعلام المرئي والمسموع ما أخذ الناس والمسؤولون في المؤسسات الثقافية قاطبة يألفونه ويستطيبونه وينامون عنه، وأصبحنا نسمع على اختلاف مراتبهم واختصاصاتهم من يدعو إلى هجر التقعيد النحوي والصرفي، ثم إلى استبدال العامية بالفصيحة في الحياة العامة وفي النتاج الأدبي والثقافي والإبداعي على حدٍ سواء!

إن ما وصلت إليه الحال في الساحة اللغوية (وهي الساحة التي نبني فيها انتماءنا الصريح، ونخط هويتنا الفكرية ومشروعنا الحضاري العام، وندخل على المستقبل الذي نريده من أبوابه كلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية) لا يبشر بالخير أبداً. بل ينذر بشر ما نحن فيه: انحلال الروابط، وتجزئة الأرض، وضياع الإنسان وعزله، والانجراف المرسوم في تيار العولمة بمفهومها القائم الذي يعني السيطرة على الاقتصادات الضعيفة وطيَّ ثقافات أهلها لصالح الاقتصادات القوية وثقافاتها المتقدمة».

وبعد رصد هذا الواقع يقول بكل صراحة وشفافية وشعور عالٍ بالمسؤولية: «يؤلمني أن يصل بي التفكير في الهم اللغوي إلى الإحساس بعجزنا عن حمله في ساحتنا الوطنية وحدها، على حين تبقى معظم الساحات العربية بعيدة عنه على أقدار نسبية، فالغِناء خارج السرب يبقى صعباً، ويصل بنا أحياناً إلى الحزن، إذ يقود إلى التساؤل عن قدر الانتفاع بما نحن في صدده».

ومع ذلك يرى أن جدار الخلاص يتمثل في اللغة العربية الواحدة، وحدة الأمة ووحدة تراثها، صوت ضميرها العميق المنبعث من أعماق التاريخ وخشبة الصلب والموت في وقت واحد.

ومن آرائه ومقترحاته العملية في مجال تمكين اللغة العربية والتي زوّد لجنة التمكين بها

تكليفُ متخصصين وضعَ معجم صغير تفصّح فيه أكثر المفردات والتراكيب وروداً في المحكية العامية السورية ليكون في الأيدي تعود إليه اللجنة في توجهها، ووضعَ كتاب صغير تجمع فيه أهم قواعد الكتابة السليمة نحواً وإملاءً، وتتولى توزيعه على الدوائر والمؤسسات، ووضعَ آلية للتدقيق اللغوي في مؤسسات الدولة قاطبة، واختيارَ العناصر الصالحة لتأدية هذا الواجب، إذ إن أكثرهم لا يحمل غير الشهادة الثانوية في أغلب الأحوال، ويرى أن يلجأ إلى زرع المدققين اللغويين في لغة البث في أجهزة الإعلام كلها لرصد الأخطاء وتنبيه المذيعين عليها، وألا يكتفى بإقامة الدورات التدريبية. وفي مجال الإعلام أيضاً اقترح أن توكل إلى بعض العاملين القادرين في مجال الإعلام كتابةُ برامج عملية خفيفة وجذابة تستعين بالحوار والحكاية والمشاهد التمثيلية السريعة لبلوغ هذه الغاية، فإذا بلغ البرنامج من النجاح ما يجعل وسائل الإعلام العربية الأخرى تحذو حذوها وتقتدي بها، فيقع الإشعاع بها في الطرفين.

وفي الاحتفال بيوم اللغة الأم في الحادي والعشرين من شباط اقترح إقامة موازنة بين النهوض بالعبرية الميتة حتى نهايات القرن الماضي، والرقي بها إلى درجة استيعابها للمنجز العلمي المتطور وإنتاجه، وبين العربية في مؤسسات التعليم العالي في الساحة العربية قاطبة، وقد سموا جامعتهم الجامعةَ العبرية لا الجامعة الإسرائيلية لإدراكهم مكان اللغة من سعيهم إلى طوائفهم في أنحاء العالم القديم والحديث.

وفي مجال التحرر من الأمية دعا إلى إنشاء مراكز لا مدارس لتحرير كثير من الشباب (ذكوراً وإناثاً) من ربقة الأمية في الأرياف بخاصة، فإن ما رآه من أعدادهم في حلب كما يقول يسد البصر! وقد أنهى بعضهم خدمة العلم، وغادرها على الحال نفسها! على حد تعبيره.

أما مقترحاته في مجال القراءة فقد تجلت في تخصيص بعض الأركان في المقاهي ودور الترويح والأماكن التي يرتادها الناس على اختلاف مقاصدها، تعرض فيها، فضلاً على الصحف والمجلات، كتب جذابة خفيفة تغري الرواد باقتنائها لهم أولاً ولأولادهم في البيت. وإن إقامة مكتبات صغيرة في البيوت تجمع فيها الكتب في مدار الأيام، ويعين الرجوعُ إليها على تقوية الحافز، وغرسِ عادة القراءة في أفراد الأسرة صغاراً وكباراً خطوةٌ أصبحت ضرورية في عصر التلفاز والحاسوب والشابكة، والانصراف منها عن القراءة الورقية التي هي الأساس دائماً لكل ما ننوي

النهوض به.

ولعلَّ من أكثر المقترحات التي ركز عليها مقترَحه: الجدية، الجدية، الجدية، والتقليل من الكلام والتنظير، مع الكثير من الفعل، هما الدواء الشافي لمجتمع مسترخ لا تصلح فيه التعميمات والتنظيرات مهما تفننا فيها.

وبعد أن قدم فقيدنا الراحل باقة من المقترحات العملية للنهوض باللغة العربية يقول: «أتمنى أن يكون محصول الجُهد الذي تبذله اللجنة على مختلف الصعد مرضياً فإن العبرة دائماً بالنتائج، وللنتائج مقدمات، والمقدمات تقتضي أن تكتسب قرارات اللجنة صفة الإلزام».

**أيها الحفل الكريم:**

كان فقيدنا يتسم برهافة الحس ويقظة الوجدان ورجاحة العقل، يزين ذلك كله مشاعر إنسانية نبيلة افتقدناها في عصر انحسرت منه القيم المعنوية واجتاحته قيم الاستهلاك، وسادت فيه المصالح حتى بات ينطبق عليه قول شاعرنا العربي:

حياك من لم تكن ترجو تحيته  لولا المصالح ما حياك إنسان

في عصر تلك هي سماته كان فقيدنا الكبير ينأى بنفسه عن مواضع التهم ويشمخ بمثله وقيمه في عالم الحق والخير والجمال، فكان الاتزان في سلوكه فكراً ونزوعاً وأداءً يتجلى في جميع المواقع التي عمل فيها، وكان الألق في منظومة المناقب التي يتحلى بها عفة ونبلاً وكرامةً وأناةً.

وسيبقى اسم فقيدنا الغالي ماثلاً في العقول والقلوب لأنه كان باراً بتنوير العقول والبصائر، وعاملاً على إشاعة الحب في القلوب ببيانٍ عذبٍ، وأسلوب رشيق، تزينه عواطف إنسانية نبيلة، ومشاعر وجدانية رقيقة.

رحم الله فقيدنا الكبير الرحمة الواسعة سعة ما أعطاه لأمته من أفانين الثقافة الهادفة والملتزمة. وما أعظم ما أعطى! وما أفدح ما فقدناه برحيله! إلا أنّ عزاءنا برحيله الأبنية البشرية العالية والقوية التي بناها بنين وبنات فأحسن البنا علماً وخلقاً ومناقب رفيعة (الدكتور محمد، والدكتور أحمد، والدكتورة سحر، والدكتورة عبير، والدكتورة رحاب: حفظهم الله جميعاً). وعزاؤنا برحيله المؤلفات القيمة التي أبدعها يراعه فأضحت منهلاً عذباً لرواد العلم وناشدي الثقافة. وعزاؤنا برحيله السيرة العطرة التي خلَّفها وراءه:

يضوع عبير المسك إن ذُكر اسمُه فنذكره والطيب يعشقه القلبُ

وأخيراً أتساءَل قائلاً:

مَـنْ للفصـاحةِ بعـد فقـدِ الأشـتر مَـنْ للفضـيلة والسـماحة والتقـى؟

قلـبي يشـاركـكم عظـيم مصـابكم في مـؤمنٍ نحـو الجنـان قـد ارتقـى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

# الفهرس


- **تصدير**
- **الباب الأول: «في ندوات تكريمية»**

١- بعض السمات البارزة في المنهج التربوي للأستاذ الدكتور شكري فيصل. ص(٧)
٢- كلمة عن الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي. ص (٤٥)
٣- الملتقى الثقافي «فلسطين في فكر ادوارد سعيد». ص(٦٤)
٤- ندوة الشاعر عمر أبو ريشة. ص(٧٤)
٥- الحفل التكريمي للأستاذ الدكتور عبد الله عبد الدايم. ص(٨٢)
٦- الحفل التكريمي للأستاذ الدكتور إحسان عباس. ص(٨٩)
٧- ندوة الشاعر بدوي الجبل. ص(٩٧)

- **الباب الثاني: «في مواقف رثاء»** ص(١٠٧)
١- كلمة رثاء الأستاذ الراحل أمجد الطرابلسي. ص(١٠٩)
٢- كلمة بمناسبة رحيل الأستاذ الدكتور عبد الوهاب حومد. ص(١١٦)
٣- كلمة بمناسبة رحيل الأستاذ نعيم الرفاعي. ص(١٢٤)
٤- كلمة في الحفل التأبيني للأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي. ص(١٣٠)
٥- كلمة في الحفل التأبيني للمرحوم الأديب والمربي والمترجم وجيه الأسعد. ص(١٤٠)
٦- كلمة في الحفل التأبيني للأستاذ الدكتور فاخر عاقل. ص(١٤٧)
٧- كلمة في الحفل التأبيني للأستاذ الدكتور زهير البابا ص(١٥٤)
٨- كلمة في الحفل التأبيني للأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر ص(١٦١)